المبحث السابع

الباقلاني وإعجاز القرآن

كتبت عن الباقلاني في كتاب الإعجاز البلاغي ، وقصدي هنا أن أزيد بعض مسائلة بيانا ، لأن الباقلاني لم يأخذ ما يستحقه من عناية في دراستنا البلاغية والنقدية ، ويتجاوزه كثير ممن يكتبون في تاريخ البلاغة والنقد ، مع أنه أثار قضايا لم يثرها غيره على الوجه الذي أثارها ، وله غور بعيد فيما يكتب ، وكلما راجعت كلامه بادرني الاعتقاد بأن فيه خبايا لم تستخرج بعد .

وكان الباقلاني شديد اليقظة ، غزيز العلم ، قوي البديهة ، قوي الحجة ، وكان من أشد الناس تمكنا بمذهب أبي الحسن الأشعري ، وكان لسان الأشاعرة في مجلس عضد الدولة ، وله في هذا الباب تاريخ حافل ، وكان يُسكِت ويَقْمَعُ بقوة حجّته شياطين المعتزلة كما كانوا يوصفون في ذلك الزمن الذي ولّى . وهو وصف ظالم

ويرى الباقلاني أن العلم بالشعر والنثر هو المَدخل الذي لا يستقيم الكلام في الإعجاز بدونه ، وكان كثير من شيوخ علماء العقائد يخوضون في

الإعجاز بمعزل عن العلم الواجب بكلام العرب ، وكانوا لا يصيبون كما يصيب من لهم حظ موفور في كلام العرب .

ويقول الباقلاني إنه لا يستطيع أن يُبيّن ما يريد بيانه لمن كان عن معرفة الأدب بمعزل : « لسنا نزعم أنه يمكننا أن نُبيّن ما رُمنا بيانه وأرَدْنا تفصيله لمن كان عن معرفة الأدب ذاهبا ، وعن وجه اللسان غافلا ، لأن ذلك مما لا سبيل إليه »[1].

وقول الباقلاني« مما لا سبيل إليه » : هو قول عبد القاهر باستحالة معرفة الإعجاز من غير سبيل الشعر ، ومن المهم أن نتنبه للأفكار التي تتلاقى عندها اجتهادات أهل العلم وكأنها الرايات المنصوبة التي تنتهى إليها أقدام أهل الصدق .

ومن أبرز ما ذكره الباقلاني في علم البلاغة ونقد الشعر أن قاعدة الحسن في البيان هي شدة الوضوح ، وبمقدار وفرة حظ الكلام من الوضوح يكون قدر الكلام أو مقدار حظه من الفضل ، يقول الباقلاني : « فما كان في تصوير المعاني أظهر في كشفها للفهم الغائب عنها ، وكان مع ذلك أحكم في الإبانة عن المراد ، وأشد تحقيقا في الإيضاح عن المطلب ، وأعجب في وضْعه ، وأرشق في تصرفه ، وأبرع في نظمه ، كان أولى ، وأحق ، بأن يكون شريفا »[2]. وهذا قريب جدا من وضوح الدلالة وحسنها في الذي قدمناه .

ولا يجوز أن نفهم أن الظهور والوضوح ،وقوة الكشف تعني قرب الغورة، أو السطحية ، لأن الكلام الذي لا غور له ولا باطن له ليس من مادة العلماء

---

(١) إعجاز القرآن صـ ٧ .

(٢) المرجع السابق صـ ١١٩ .

في المدارسة ، وإنما القرب والوضوح والكشف في تجويد الصياغة ، وصقل الصُّور ، والدقة في الإبانة ، وشدة تحقيق المعنى المطلوب ، ولباقة التصرف في العبارة عنه ، البارعة في نظمه .

وكل هذا دال عليه نص الباقلاني ، دلالة ظاهرة ، وهذا هو معنى شدة الوضوح الذي تكلم عنه الجاحظ ، ومن قبل الجاحظ ، وقد شرحه عبد القاهر شرحا جيدا في أسرار البلاغة حين لخصه في أن المتكلم يضع لك المنارات التي تهديك إلى سر معناه ، ويقيم لك القرائن على منحنيات أسلوبه حتى تقع على أسرار معانٍ ، لم يقع عليها غيرك ، أو حتى ترد الشريعة زرقاء والروضة غناء كما قال .

وقد قرن الباقلاني النطق بالتصوير في نص جيد جدا ، قال فيه بعد ما بين أن النطق أخو التصوير ، « وقد أجمعوا أن من أحذق المصورين من صوَّر لك الباكي المتضاحك ، والباكي الحزين ، والضاحك المتباكي ، والضاحك المستبشر ، وكما أنه يُحتاج إلى لطف يد في تصوير هذه الأمثلة ، فكذلك يُحتاج إلى لطف في اللسان ، والطبع في تصوير ما في النفس للغير »[1].

واضح أن الباكي المتضاحك يكتم دموعا وراء رنات ضحك متكلفة ، وأن الضاحك المتباكي يكتم بهجته وراء البكاء المتكلف ، وهذا معناه أن الصورة لها ظاهر ، وباطن ، وأن المصور الحاذق يضع ملمحا أو شيَة ، أو إيماءة ، في وجه الضاحك ، ليفتح لك الباب لإدراك شيء وراء هذا الضحك ، لتدرك المخالفة الشديدة في الصورة بين ظاهرها ، وباطنها ، وقل مثل ذلك في الصورة المقابلة صورة المتباكي الضاحك ، أما الضاحك المستبشر ،

(١) إعجاز القرآن صـ ١١٩ .

أو الباكي الحزين ، فالظاهر فيها يتفق مع الباطن ، وفضل التصوير البارع أنه يريك ذلك كله .

وقل مثل ذلك في البيان ، وكما أن هذه الخلفية المتسترة للصورة التي لها ظاهر يخالف الباطن ، لا تكون إلا بلطف في الأنامل ، كذلك صناعة الكلام ، وأن من الكلام ما يجتهد صانعه بلطف طبعه ، ولطف لسانه في أن يقدم لك صورا مُغشّاة بلون من المشاعر يخفي في باطنها نقيض ما يبديه ظاهرها .

وليس هذا من الكذب ، ولا من تزوير المشاعر لأن المصوّر والمتكلم كل منهم يريد أن يريك الباطن الذي وراء الظاهر وإنما هو إشارة بارعة من الباقلاني إلى ضرب من المعاني المتداخلة والمشاعر المتضاربة ، داخل النفس الإنسانية ، حين يصطدم في أعماقها النقيض مع النقيض ، ويختصم الأمل واليأس ، فيضحك المرء ضحكا كالبكاء أو يبكي بكاء كالضحك ، ويستطيع اللسان البارع أن يريك هذا كله .

الباقلاني لا يريد أن الشاعر يحاول أن يخفي معنى أو حسًّا أو شيئاً ما في نفسه فتحمله إليك نميمة اللغة ، وإنما يريد أن تجمع العبارة السخيّة هذا الخليط المتنافر داخل النفس .

الباقلاني يطالب القارئ بالاقتراب الشديد من عمق النص حتى يسمع منه أغمض ، وأخفى ما يسكن فيه . وحتى يلمح الذي وراء الملامح .

* * *

ثم إن الباقلاني برع براعة متميزة في تحليل العناصر المكونة للبيان شعرا كان أو نثرا ، وفى تحديد أوصاف هذه المكونات من جهة ما تحمد به أو تذم .

والأصل الذي أقام عليه حديثه في هذا التحليل هو اللفظ والمعنى ، وقد نظر فيهما من جهة قياس أحدهما بالآخر فقد يكون الكلام مما قصر لفظه وطال معناه ، أو يكون مما قصر معناه وطال لفظه أو يكون مما تساوى فيه اللفظ والمعنى .

وبناء الكلام على قصر اللفظ وطول المعنى مرتبة لا تنال بالهُوينا لأن ذلك لا يتوفر إلا إذا تغازرت المعاني ، والأحوال ، والأخيلة والصور وجاشت النفس بكل ذلك ، ثم استطاع المتكلم بالمهارة والخبرة أن يستثمر في الإبانة عن ذلك كل أحوال اللغة وكل طاقاتها .

وهذا وإن كان يبدو في الظاهر أن الدارس يدركه بسهولة فليس الأمر فيه كذلك لأنك لا تستطيع أن تدرك عمق العبارة وسعة معناها وبعد غورها إلا بمزيد من الوعي واليقظة والدربة والمراجعة أيضا .

وإذا قلت لك إننا لم ندرس الشعر ولا الرسائل من هذه الزاوية دراسة تكشف لنا كثافة الدلالة ، وطبقات المعاني ، ومستتبعاتها ، وتوابعها ، حتى تضع بها اليد على الفروق بين كلام ، وكلام ، لم أكن متجاوزا في ذلك .

والقسم الثاني الذي ترى فيه المعاني تقصر واللفظ يطول ترى الكلام فيه قليل الحظ من الثراء قريب الغور لا يحتاج دارسه إلى طول مراجعة ، وتحديد هذا في الشعر وبيانه وشرحه وتحليله ليس سهلا وكذلك قل في القسم الثالث الذي تتساوى فيه الكلمات والمعاني وربما كان تحديد هذا أغمض من الأولين .

وواضح أن كل هذا درسه البلاغيون في الإيجاز والإطناب والمساواة ويزيد الباقلاني على هذا التقسيم شيئاً ليس في كلام المتأخرين وهو أنه نظر إلى هذين العنصرين المكونين للأدب من زاوية أخرى هي أن يكون هذان

العنصران بديعين شريفين ، أو مستجلبين متكلفين ومصنوعين متعسفين ، أو يكون المعنى بديعا شريفا ، واللفظ متكلفا مستجلبا ، أو العكس وهذا كله مع طول المعنى وقصر اللفظ وعكسه إلى آخر هذه الأحوال التي تتكاثر ويجب على الذي يتفقد الكلام أن ينفذ إليها وأن يعطي كل عنصر منها حقه من الحسن وخلافه .

ويشير الباقلاني إلى أن معرفة هذه العناصر ومعرفة مقاديرها وأقدارها وأوصافها من أصعب ما يواجهه الدارس لأن الكلام النظري في كل ذلك سهل وقد برعنا فيه لطول ملابستنا له ، أما تفقده في الشعر والبيان فإنه من الصعوبة بمكان حتى إنهم قالوا ذهب الذين يحسنون معرفة هذه الأشياء التي لخصتُها لك بيسر وسهولة . في سطور معدودة .

قال الباقلاني :

« وفى جملة الكلام ما تقصر عبارته ، وتفضل معانيه ، وفيه ما تقصر معانيه ، وتفضل العبارات ، وفيه ما يقع كل واحد منهما وفقا للآخر .

وكل واحد منهما قد ينقسم إلى ما يفيدها على أن يكون كل واحد منهما بديعا شريفا ، وغريبا لطيفا ، وقد يكون كل واحد منهما مستجلبا متكلفا ومصنوعا متعسفا ، وقد يكون كل واحد منهما حسنا رشيقاً ، وبهيجاً نضيرا ، وقد يتفق أحد الأمرين دون الآخر ، وقد يتفق أن يسلم الكلام والمعنى من غير رشاقة ولا نضارة في واحد منهما ، وإنما يميز من يميز ، ويعرف من يعرف ، والحكم في ذلك صعب شديد والفصل فيه شأو بعيد ، وقد قلّ من يُميز أصناف الكلام فقد حكى عن طبقة أبي عبيدة وخلف الأحمر وغيرهما في زمانهما أنهم قالوا ذهب من يعرف نقد الشعر »[1].

---

(١) إعجاز القرآن صـ ١١٩، ١٢٠ .

ومن أهم ما يجب الوقوف عنده في هذا النص هو أننا نستسهل تلخيص القول بأن اللفظ قد يقصُر والمعنى يطول ، وقد يكون كل منهما بديعا شريفا أو مستجلبا سخيفا إلى آخر ما في هذا النص ، ونتوهم أيضا أننا نحسن معرفة ما يطول لفظه ، ويقصر معناه ، ونحسن أن نعرف البديع الشريف إلى آخره ، والباقلاني يروي عن أبي عبيدة وهو من هو في فقه كلام العرب ، وروايته عن شيوخ الشعر وخلف الأحمر الذي كان من أعلم الناس بالشعر ، هذان يقولان ذهب من يعرف نقد الشعر ، يعني لم يكونا ممن يعرف نقد الشعر ، ولا من كان في زمانهما من أمثال يونس بن حبيب ، وأبوعبيد القاسم فكيف بالباقلاني وكيف بنا نحن؟ وأبو عبيد من أفضل من قرأت لهم وهو واحد من علماء الإسلام الأربعة كما قال ابن طاهر وأعلم الناس بلغات العرب كما قال أبو قدامة وقد توفى سنة ٢٢٤، وكل هذا يعني أن الهُوّة متسعة جدا بين معرفة البلاغة من كلام علمائها ، ومعرفة البلاغة في الشعر والأدب ، وأن الأول قريب منا نحصله بمجهود يسير والثاني بعيد عنا لا ننالهُ إلا بطول دربة وطول مزاولة وطول صبر وطول تدبر . وهذا مما يجب أن يضعه طالب العلم بين عينيه .

لا شك أن الباقلاني كان شديد الاهتمام بتنوع قدرات الناقد، وسعة علمه، وذلك لتنوع الجهات التي يجب أن يحكم الناقد فهمها في النص المدروس ، وقد عقب الباقلاني على معرفة مقادير الألفاظ وأوصافها ، ومقادير المعاني وأوصافها ، بما يفيد أن من يحكمون معرفة ذلك قد ذهبوا ، مع أن هذا الجانب من الشعر والبيان كان موضوع النظر والدرس في العصور كلها ، ثم تراه يفتح بابا آخر من أبواب العلم بالشعر ليست مادته شائعة شيوع اللفظ والمعنى ولم تَدُرْ دراسة حوله كما دارت حول ما عقب عليه بذهاب أهله

وهو معرفة كلام المقتدر ، وأنه نمط متميز ، ومعرفة كلام المتوسط ، ومعرفة المطبوع ، والمتكلف ، ومعرفة المصنوع ، والمطبوع معا ، وهذا أغمض وأصعب ولا سبيل لنا إلى معرفة ذلك إلا بطول الملازمة ، لمزاولة الشعر ، وتفقده ، وتقليبه ، وتفليته ، وتذوقه ثم يُصيب من جماعة الملازمين الواحد من الألف وهذا يكفى .

ثم ينتقل الباقلاني إلى باب آخر أصعب وأغمض ويوجب على ناقد الأدب والشعر أن يكون خبيرا به ، وهو تمييز شعر كل شاعر من شعر غيره ، فلا يلتبس عليه شعر مسلم ، بشعر أبي تمام ، ولا شعر البحتري بشعر ابن الرومي ، وهكذا كل شعراء العربية في كل عصورها ، وتكون معرفته لذلك معرفة لا يداخلها شك ، ولا يحيط بها ريب ، « كما أنه إذا عرف خط رجل لم يشتبه عليه خطه حيث رآه من بين الخطوط المختلفة »[1].

وليس لنا سبيل إلى هذا إلا مواجهة الشعر بلا واسطة ، وقراءة الشعر قراءة تستجلي طريقة الشاعر ، ومنزعه ، وإحكام الجهات التي يقصد إليها في استحضار معانيه ، وإثارة صوره ، وخواطره ، ويجب أن نستحضر هنا ما سبق بيانه من كلام الشيخ محمود شاكر ، وأن ذات الشاعر متمثلة في معانيه ، وخواطره ، وهواجسه . وغرائزه ، وقيمه ، وشمائله ، التي تموج في نفسه موجا ، والتى يبين عنها بلغته ، وأننا إذا أغفلنا ذلك في قراءتنا للشعر وتذوقنا له فليس لنا من سبيل إلى تمييز شعر أبي تمام من شعر البحتري ، وأن أوائلنا كان يقوم علمهم بالشعر على هذا التميز الذي هداهم إليه التذوق .

وإذا كان الباقلاني يقول لنا لا ترخص في معرفة أن هذا شعر فلان معرفة لم يداخلها ريب ولاشك ، من غير أن يبين لنا الشيء الذي في شعر

---

(١) إعجاز القرآن صـ ١٢٠ .

فلان يدلنا عليه ، فإن كلام الأستاذ محمود شاكر يبين أن سر الاختلاف والتميز هو اختلاف الينبوع الذي يتكون منه وبه الشعر عند كل شاعر وهو المعاني التي تجيش بها الصدور وكان يقول في مجلسه إن دراسة الأبنية البلاغية لا تهدي إلى تمييز شاعر عن شاعر ، وإنما الذي يهدي إلى ذلك شيء آخر وليس ثمة شك في أن هذا الشيء الآخر هو ما أفصح عنه في قضية الشعر الجاهلي ، فإذا كانت دراسة الأبنية اللغوية سبيلا إلى معرفة ما في النفس كانت سبيلا لنا إلى تمييز شعر من شعر ، ولكن ذلك لن يكون إلا بدراسة الأبنية اللغوية في الديوان كله ، يعني نتلقى الشعر ونلازم تكراره ، وفى وعينا هذه الأصول التي تقوم عليها هذه الأبنية اللغوية التي هي مجاري الشاعر ، وسننه في الإبانة عن معانيه ، وهذا صعب جدا وشاق جدا ولكن الحق لا يدرك إلا بالجد .

والباقلاني يقول : « لا يخفى على أحد يميز هذه الصنعة سبكُ أبي نواس من سبك مسلم ، ولا نسج ابن الرومي من نسج البحتري ، وينبهه ديباجة شعر البحتري ، وكثرة مائه ، وبديع رونقه ، وبهجة كلامه ، إلا فيما يسترسل فيه ، فيشتبه بشعر ابن الرومي ، ويحركه ما لشعر أبي نواس من الحلاوة ، والرقة ، والرشاقة ، والسلاسة ، حتى يفرق بينه وبين شعر مسلم »[1] ، وهكذا يمضي في ذكر الشعراء والكتاب .

ولا شك أن السبك ، والنسج ، والديباجة ، والماء ، والرونق ، والبهجة ، والحلاوة ، والرقة ، والرشاقة ، والسلاسة ، كل ذلك متلبس بالأبنية اللغوية ولا سبيل إلى معرفته إلا من خلالها ، لأن هذه الأبنية اللغوية هي المدخل

---

(١) إعجاز القرآن صـ ١٢١ .

الذي ليس لنا مدخل سواه إلى معرفة ما وصفه الشيخ شاكر بالموج اللجي داخل نفس الشاعر ، والذي هو سِمْته وشَخْصُه وذات نفسه .

كل ذلك لابد أن يمارس في كل ديوان شعر وفى كل رسالة حتى تميز بين عبد الحميد وابن المقفع ولا تشتبه عليك رسائل ابن العميد برسائل أهل عصره ، ومن بعده ممن برع في صناعة الرسائل وتقدم في شأوها .

وإذا كان الباقلاني يوجب عليَّ أن أعرف سبك مسلم ، فإن كلمة سبك مسلم تعني كل خبرة مسلم في صنعة الشعر ، وتعني كل معاني مسلم ، وكل صور مسلم ، وكل حِيل مسلم ، وكل ما صار به شعر مسلم شعرا ، دالاً على مسلم .

ولم يكتف الباقلاني بهذه التكاليف التي يوجبها على ناقد الأدب ، ومن يتصدى لمعرفة أقدار الكلام ، وأقدار المتكلمين ، وإنما يضيف شيئا أخفى وأغمض وهو أنه لا يجوز لك أن تعرف صنعة كل شاعر في شعره ، وكل كاتب في كتابته ، فحسب ، وإنما الواجب أن تعرف قصة هذا السبك ، وهذا النسج ، وهذا المذهب ، من بداية ميلاده ، يوم أن فتح الشاعر فمه بقصيده الأول ، أو برسائله الأولى ، وأن تستكشف بخبرتك أنه بدأ متأثرا بفلان ، مقاربا له ، ومقلدا له ، أو أنه كان ينظر إليه من قريب ، أو أنه كان ينظر إليه من بعيد ، وأنه كانت تستهويه ألفاظه فيأخذ منها ، أو كانت تستهويه صوره فينسج على منوالها ، أو أنه كانت تستهويه معانيه فيقتبسها ، أو أنه كان يلاحظ حذوه وطريقه ، وبديع ألفاظه ومعانيه ، وأنه ظل على ذلك زمانا طال أو قصر ، ثم أخذ يبتعد عنه ، ويعوِّل على نفسه ، وأنه استطاع أن يصنع له طريقة في السبك ، والنسج ، وصنعة الشعر ، أو أنه بقى يلحظ غبار غيره ويستشرف شأوه ، أو أنه كان لايفعل ذلك كله مع شاعر واحد ، وإنما كان

ينظر إلى فلان في كذا ، وإلى فلان في كذا ، وأنه ظل كذلك ، أو صنع له طريقا مقتبسا من طرائقهم ، وقل مثل ذلك في الكتابة والكتاب .

يقول الباقلاني في كلمة جامعة لهذا كله ولأفضل من هذا كله .

« ثم إنهم يعلمون أيضا من له سَمْتٌ بنفسه ، ورَفْتٌ برأسه ، ومن يقتدى في الألفاظ أو المعاني أو فيهما بغيره ، ويجعل سواه قدوة له ، ومن يُلم في الأحوال بمذهب غيره ، ويطور في الأحيان بجنبات كلامه »[1].

الباقلاني يقول ليس المطلوب أن تعرف مذاهب الشعراء والكتاب ، وإنما أيضا أن تعرف قصة المذهب من نشأته ، إلى أن يصير رأسا بنفسه ، وهذا من أعجب ما قرأت ، ولم أجد له نظيرا بهذا العمق ، وهذا الشمول عند غير الباقلاني ، ولم أعرف أحدا كتب عن كاتب أو شاعر وتناول هذا الجانب بدقة وتفصيل وشمول .

والباقلاني الذي يقتضينا هذه الضروب من المعرفة ، وهذا المستوى من الإتقان ، لم يحدثنا بكلمة واحدة عن علم يُعينُ في هذا الباب ، بل إنه استبعد البديع وعلم البديع عن أن يكون سبيلا واصلا فيه ، وإنما السبيل الذي لا سبيل سواه هو الالتقاء المباشر بالشعر والنثر ، والقراءة اليقظة ، المتفقدة ، الواعية ، ولم يتكلم عن معرفة سنن العرب ، ومذاهبها في الإبانة عن معانيها ، وهذا ضروري ولا يستبطن الشعر إلا به ، وذلك لأن هذا العلم كان باقيا في السلائق في زمن الباقلاني زمن أبي الطيب وأبي فراس ، وأبي الفتح ، يعني زمن الشعراء الكبار ، والعلماء الكبار ، وزمن سيف الدولة ، وعضد الدولة أيضا أعنى زمن القامات السياسية العالية وقد جُرمنا مِن كل ذلك ضَرْبةً واحدة .

---

(١) إعجاز القرآن صـ ١٢٣ .

ويجب أن نذكر أن الباقلاني لا يكتب كتابا في النقد ، وإنما يكتب في إعجاز القرآن ، وأنه هنا يحدِّد علم ومعرفة وعمق ثقافة من يتكلم في الإعجاز ، وأنه لا يرتقي إلى الحديث في الإعجاز إلا إذا تناهى في معرفة علم الشعر ونقده .

ولم أُبيِّن لك عمق هذه القضايا النقدية التي طرحها الباقلاني ، والتى عرضتُها وإنما وضعتُها بين يديك ، لعلك تستطيع أن تصل فيها إلى مالم أستطعه .

وتركت أشياء هي أغمض ، وأصعب ، وأبعد ، من كل ما ذكرتُ ، لأن أبواب الوصول إليها عندي مُغلقة إلا باب الطبع ، وذلك كقوله « إن القارئ الناقد المتذوق للشعر لابُدّ له أن يكون عالماً بمن يخترع الكلام اختراعا ، ويبتدهه ابتداها ، وأن يميّزه عن من يُروَّى فيه ، ويجيل الفكر في تنقيحه ، ويصبر عليه ، حتى يتخلص له ما يريد »[1].

وأن يعرف « من يُعرف بالبديهة ، وحدّة الخاطر ، ونفاذ الطبع ، وسرعة النظم ، يرتجل القول ارتجالا ، ويطبعه عفوا صَفوا ، فلا يقعد به عن قوم قد تعبوا ، وكدوا أنفسهم ، وجاهدوا خواطرهم »[2].

والنص الثاني من معدن النص الأول وكأنه تأكيد لمعناه ، لأن الارتجال أخو البديهة وإجالة الفكر والتروي والتنقيح من باب مجاهدة الخواطر ، وكد النفس والمهم هو كيف أستخرج هذا من الشعر وحده؟كيف تدلني هذه القصيدة على أن صاحبها ارتجلها ارتجالا ، وطبعها عفوا صَفوا ، وأن هذه

(١) إعجاز القرآن صـ ١٢٢.
(٢) المرجع السابق صـ ١٢٣ .

الأخرى أجال فيها الفكر وصبر حتى خلَّصها؟ وأنا أكره خداع النفس ، وإنما يكون العلم عندي حين أضع يدي عليه ، وأحدده ، وأشير إليه ، ولا أجيز لنفسي أن أقول إنك سترى أثر المراجعة باديا على هذه ، وأثر البديهة باديا على تلك ، ولو كان زهير لم يسمِّ كبرى قصائده الحولي المنقح فهل كان في مقدورنا أن نستخلص هذا من شعره؟ هل يمكننا أن نستخلص عبودية عبيد الشعر لشعرهم من شعرهم؟وهل أشار أبو عمرو بن العلاء إلى المواطن الدالة على تثقيف زهير ، وصَبره على شعره؟حتى يتخلص له ما يريد؟ لو قلت إن المسألة مسألة صقل ، وتثقيف ، فإني أجد في شعر امرئ القيس وكثير من شعر النابغة صَقلاً ، وصَفاء ، وعمقا ، وتثقيفا يزيد على ما أجده في شعر زهير ، والسؤال أي شيء في الشعر يدلني على أنه شعر رويّة ، أو شعر ارتجال؟ وأي علامة منصوبة في شعر عبيد الشعر تدل على أنهم عبيد الشعر ، وأنا قليل الاستخدام لكلمة عبيد الشعر ، لأني أكره أن أحفظ أحكاما على الشعر ولم أجد لها حقيقة في نفسي ، أكره أن أقول ما يقوله الناس مثلا في أن هذه الأبيات أجود ما قيل في معناها ، ما لم تجد نفسي جودة هذه الأبيات ، وتجد أيضا نفحات الإلهام والتفوق فيها ، ولهذا أقول إن الباقلاني يكلفنا أحيانا ما لا يدخل في الوسع ، وأجد هذا الذي لا يدخل في الوسع كلمات موجزة يرمي بها الباقلاني في درج كلامه في مواطن كثيرة ، وليس فقط في الذي قدمت كأن يقول مثلا وهو يحدثنا عن علم ناقد الشعر ومتذوقه « فلا يخفى عليه ما يختص به كل فاضل تقدم في وجه من وجوه النظم ، من الوجه الذي لا يشاركه فيه غيره ، ولا يساهمه سواه »[1].

(١) إعجاز القرآن صـ ١٢٣ .

ومعنى هذا أن أستصفى من شعر أبي تمام كل خواطره ، وصوره ، وإبداعاته ، وابتكاراته التي فاق غيره فيها ، وتميز بها ، ولم يشاركه غيره فيها ، وهكذا قل في كل شاعر ، وكل كاتب تستخرج له ما تقدم به ، وفيه ، ولم يساهمه سواه ، ثم أقول أيضا إن فلانا إذا قال في باب كذا سبق الشعراء وإذا قال في باب كذا ساوى الشعراء ، وإذا قال في باب كذا سبقه الشعراء ، لأنه هنا لم يُلحق وهنا تتساوى أقدامه بأقدام غيره وهكذا .

« ولا شك أن هذا كله كان من الواجب أن نكون مجتهدين فيه إن لم نكن قد أنجزنا منه ما ينجز ، ولكنه كله مسهُو عنه كما ترى ، وراجع عمل النقاد وراجع ما يعملون فيه وما شغلوا به أنفسهم وما شغلوا الأجيال به ، لقد غاب كل هذا عن الجيل ، والحاضر أمامه الآن فلان وفلان الذين هم العدو الألد وهم العدو فاحذرهم وتأمل الهول الذي وراء ذلك . ويقول الباقلاني إن أهل الصنعة يعرفون دقيق هذا الشأن وجليله ، وغامضه ، وجليّه ، وقريبه ، وبعيده ، ومعوجه ، ومستقيمه »[1].

ويقول أيضا : « هذا أمر وإن دقّ فله قوم يقتلونه علما ، وأهل يحيطون به فهما ، ويعرِّفونه إليك إن شئت ، ويصورونه لديك إن أردت ، ويجلُّونه على خواطرك إن أحببت ، ويعرِّفونه لفطنتك إن حاولت »[2].

* * *

وبعد هذا الدرس النقدي الحافل والذي لم أجده في كتب النقد الخالصة كالموازنة والوساطة ينتقل الباقلاني إلى الإعجاز ويصطحب معه هذا الناقد

(١) إعجاز القرآن صـ ١٢٤ .
(٢) المرجع السابق صـ ١٢٥ .

الفذ البارع الذي بلغ التناهي في معرفة الفصاحات ، ويؤكد الباقلاني أن علم النقد لا يقبل فيه التوسط ، والناقص في العلم بصنعة الشعر كالخارج عنها ، والبائن منها ، فإما أن تكون متناهيا ، أو تكون أنت والجاهلون سواء ، وهذا الكلام وإن بدا غريبا إلا أنه الحق الذي لا يجوز سواه لأنك إذا كنت فيها ناقصا فستسقط كثيرا من الشعر الذي لا يجوز إسقاطه ، أو ترتفع بشعر لا يجوز أن يرتفع ، والفساد في ذلك فساد كبير لأن الجيل الناشئ سيضله هذا القلم الجاهل ، وقالوا نصف العلم شر من الجهل لأن صاحب النصف لا هو جاهل فيتعلم ولا عالم فيصيب ثم إن المعول عليه في ثقافتك ، وعلمك ، وعملك هو الذائقة البيانية فليس علمك علما تصلح فيه المحاجّة ، وليس فيه موضع للدليل ، وإنما هو الحس البياني لا غير ، فإذا كان هذا الحس غير متناه ضل السبيل إلى الحكم الجيد ، وقعد به النقص عن معرفة ما هو فيه ، وتمام العلم في هذا الباب يعني تمام صحة الطبع وتمام الدُّرْبة .

ثم وهذا أهم من كل ما مضى أن هذا الناقد المتذوق المطلوب منه أن يقطع بأن الذي بين الدّفَّتين لا يمكن أن يكون من كلام الناس ، وأنه خارج عن طوقهم ، وأنه ليس البتة من جنس كلامهم ، وهذه أخطر قضية ليست في حياة العرب ولا المسلمين ، فحسب وإنما في حياة الناس كافة ، ولهذا شدّد الباقلاني في ضرورة التناهي واستقصى الجهات التي يجب أن يحيط بها الناقد في الكلام الذي بين يديه مبتدئا باللفظ والمعنى ، والحذو والطريقة ، والسبك والنمط المقتدر ، والنمط المتوسط ، والنمط المرتجل ، والنمط المروّي فيه ، والنمط المطبوع ، والنمط المصنوع ، والمطبوع والمصنوع معا ، ومعرفة المذهب وقصته منذ ولادته ، إلى أن صار رأسا ، إلى آخر ما لم أجده بهذا التنوع وهذا الاستقصاء عند غيره .

وكل هذه الاحتياطات والتمسك بالبلوغ إلى درجة التناهي لأن القضية التي سيتكلم فيها ، ويفصل هي القضية الأم في حياة البشر كلهم ، ولا يجوز أن يتكلم فيها إلا من كان مستوعبا هذه الجهات كلها وكان متناهيا في علم ما يعلم .

وهذا يذكرنا بضرورة اعتبار هذه الحادثة الفريدة حادثة نزول القرآن كما تحدث عنها محمود شاكر ، وأنها يجب أن تكون أساس الدرس في هذا العصر وفى غيره ، وأنها هي محور كلام الباقلاني ، وهي التي شكلت رأيه في مساحة العلم المتسعة التي يجب أن يلم بها الناقد ، ويجب أن يبلغ فيها حد التناهي .

ويشرح الباقلاني منهجه في بيان الإعجاز ، ويقول مشيرا إلى القارئ الغائب الذي يعني جمهرة من يخاطبهم الباقلاني« فإن أراد أن نقرِّب عليه أمرا ، ونفسح له طريقا ، ونفتح له بابا ليعرف به إعجاز القرآن ، فإنا نضع بين يديه الأمثلة ، ونعرض له الأساليب ونصوِّر له صور كل قبيل من النظم ، والنثر ، ونحضر من كل فن من القول شيئا يتأمله ، حق تأمله ، ويراعيه حق رعايته ، فيستدل استدلال العالم ، ويستدرك استدراك الناقد ، ويقع له الفرق بين الكلام الصادر عن الربوبية ، الطالع عن الإلهية الجامع بين الحكمة والحكم . . . إلى آخره» .

وهذا النص واضح في بيان أن طريق الباقلاني في معالجة قضية الإعجاز مغاير لكل طرائق ومناهج من تكلموا في هذه القضية إلى زمانه ، وبعد زمانه إلى يوم الناس هذا ، ولم أعرف أحدا أسس كلامه في الإعجاز على تأمل الأمثلة والأساليب من الشعر والنثر في فنون الكلام المختلفة ، وليس له إلا

التأمل في هذه الأساليب ، وعليه فقط أن يعطيها حقها من التأمل ، وأن يرعى هذه الأساليب حق رعايتها ، وبهذا التأمل المستوفي حقه ، وحده يستدل استدلال العالم ، ويستدرك استدراك الناقد ، ويقع على فصل الخطاب في قضية القضايا في تاريخ الديانات كلها ، والأمم كافة ، وقضية العلاقة بين الخلق وخالق الخلق .

هذا عجيب جدا ومهم جدا وبارع جدا ، ويهدينا إلى منهج جديد يبعدنا عن التنطس في معرفة المناهج ، والمذاهب ، ويقول لنا لا تجعلوا بينكم وبين النصوص وسيطا ، واجتهدوا فقط في أن تعطوا النصوص حقها من التأمل ، وأن ترعاها أفئدتكم حق رعايتها ، وحينئذ ستعرفون مَخْرج الكلام ومصدره ، ومطلعه ، ستعرفونه إن كان صادرا عن مقتدر أو عن متوسط ، أو عن مطبوع ، أو عن صانع ، أو عن مرتجِل ، أو عن من يجيل فكره .

وفوق ذلك تعرفون ضربا آخر من الكلام ، ونمطا آخر صادرا عن الربوبية ، طالعا عن الإلهية ، كل هذا بالتأمل لا غير ، وهذا ظاهر في أن الباقلاني يرجع بنا منهجه إلى طريقة الصدر الأول ، وأن المحافظة على الذائقة البيانية المتفوقة مكوّن أساس من مكونات هذه الأمة ، وثقافة هذه الأمة ، وأن التذوق جزء من منهجها ، أو يجب أن تقوم عليه حضارتها كما قال الأستاذ محمود شاكر .

وقد بدأ الباقلاني يعرض أساليب من كلامه صلوات الله وسلامه عليه ، لأن كلامه ﷺ يتميز بأمرين ، الأول : أنه عليه السلام أفصح من نطق بالضاد ، والثاني : أنه وحي يوحى إليه من الله الذي أنزل عليه الكتاب ، وهذا وذاك مظنة الاشتباه .

وكان من بين ما نقله من كلامه ﷺ ما رواه طلحة بن عبد الله من قوله عليه السلام : «ألا أيها الناس تُوبوا إلى ربكم قبل أن تَموُتوا وبادرُوا الأعمال الصالحة قبل أن تُشْغَلوا ، وصِلوْا الذي بينكم وبين ربكم بكثرة ذكركم له ، وكثرة الصدقة في السر والعلانية ، ترزقوا وتؤجروا ، وتنصروا» .

ولم يلفت الباقلاني إلى شيء من براعة هذا الكلام ، وفضله ، وإنما طلب منا أن نعْطيه حقّه من التدبر ، وأن نرعاه حق رعايته ، فإذا فعلنا ذلك تبين لنا الفصل ووقعنا على جلية الأمر ، والباقلاني دائما يهدينا بكلمات جيدة تعيننا على إتقان التأمل ، وإعطاء الكلام حقه من الرعاية مثل قوله« وجه الوقوف على شرف الكلام أن تتأمل» وقوله : «تأمل بسكون طائر وخفض جناح ، وتفريغ لب ، وجمع عقل» ومثل هذا كثير .

وكل كلامه (عليه السلام) عليه خاتم النبوة ، وطابع الوحي ، لأن كل كلامه (عليه السلام) بلاغ عن الله ، وهذا البلاغ عن الله والإخبار عن مراد الله ، وأن هذا أمره ، وهذا نهيه ، هذا هو طابع النبوة .

ولا شك أن التأمل المفضي بنا إلى أن نستدل استدلال العالم وأن نستدرك استدراك الناقد هو التأمل المؤسس على علم باللغة ، وأدواتها ، وإمكاناتها ، وعلم بالمعاني ، وعلاقاتها ، وأنواعها ، وأجناسها ، وإلا كان تأملا لا يُفضى إلى شيء ، وكان حال المتأمل وهو يجهل دلالات الأبنية اللغوية كحال فاقد القدرة على الرؤية ، وهو يطيل التأمل ليتعرف على شيات الأشياء ، لا يمكن لمثله أن يصل إلى شيء .

وقد كنت أعددت في مسودات هذا البحث تحليلا للغة هذه المختارات على الطريقة التي تعلمناها ، من البداية بكلمة (ألا) التي تثير الاهتمام

وتشعر بمزيد من العناية بالذي يأتي بعدها ، ثم النداء الذي لا يزيد عن كونه عنصرا مثيرا هو الآخر . ومهيئاً لنفس السامعين حتى يستقبلوا ما يأتي بعده بيقظة واستشراف نفس إلى آخره ، ولكنني وجدت هذه الطريقة تعكّر على طريقة الباقلاني الذي لم يطالبنا بشيء أكثر من أن نفكر فيها بسكون طائر وجمع عقل وتفريغ لب ، ولابد لنا أن نذكر أمرين : الأول : أن القارئ الذي كان الباقلاني يكتب له قارئ له خصوصية ، لأنه كان من رجال القرن الرابع وبقايا السلائق حية في النفوس ، وحين تراجع الكتب البلاغية وتراجع أزمانها تجد أن مساحة الشرح والتحليل ، والتفصيل ، كانت تتسع بتراخي الزمن ، وما كان يَعْتَورُ سلائق الناس من ضعف ، فرق بين القارئ المتأمل في زمن الباقلاني ، والقارئ المتأمل في زمن عبد القاهر ، وهذا الفرق هو الذي دعا عبد القاهر إلى الشرح ، والتفصيل ، وأغرى الباقلاني بالإجمال .

والأمر الثاني هو أن القارئ الذي قال له الباقلاني يكفيك التأمل هو القارئ الناقد المتذوق الذي سبق بيان جهات علمه بالشعر ، والمتناهي في معرفة علم الفصاحة .

ولهذا صار من حق القارئ أن نعينه بإلقاء بعض الأضواء على هذه النصوص المختارة حتى يتمكن من التأمل المفضي به إلى صحة الحكم ، وهذا شيء غير التحليل الذي كنت أعددته ، ثم رجعت عن إثباته ، حتى لا يعكر على طريقة الباقلاني .

وقوله عليه السلام : « ألا أيها الناس توبوا إلى بارئكم قبل أن تموتوا» لابد من الفطنة لدلالة هذه الأدوات المثيرة والموقظة والتى لا تأتى في لسان أهل العلم بالفصاحة إلا للإشارة إلى أن ما يأتي بعدها من الأهمية بمكان ثم

هذا الأمر في قوله توبوا ، ولابد من تأمل التوبة وأنها أجل نعمة يمن الله بها على من يشاء من عباده ، لأنها محّاءة والتائب من الذنب كمن لا ذنب له ، ثم إنها إذا وقعت على الوجه الذي يرضاه الله يزُيد الله بها عبده ثوابا فوق مغفرة الذنب ، لأنها هي في نفسها عمل صالح ، ولابد من اللفت إلى كلمة (بارئكم) وأن التوبة إلى الذي منَّ بالخلق والإيجاد والسمع والبصر والعقل والعافية أمر توجبه المروءة ، كما توجبه الشريعة ، ويوجبه الأدب مع الله وترك التوبة والندم جرأة على الله ، وسوء أدب ، وطرح للنفس في مهلكة الغضب ، والعذاب ، ثم ذكر الموت وليس بعد الموت بمستعتب ، وإنما هو الجنة أو النار ، كل هذا يجب أن يتأمل وأن يدرك غوره .

ثم قوله عليه السلام : « بادروا الأعمال الصالحة قبل أن تشغلوا » فكلمة « بادروا » وما فيها من الدلالة على النهوض ، والمبادرة قبل فوات الأوان ، ثم ذكر الأعمال الصالحة ، ومن شأن الفطرة المستقيمة أن تبادر إلى الأعمال الصالحة فكيف إذا كانت امتثالا لأمر الله ، ثم إن مجيء الأمر بالمبادرة إلى العمل بعد الأمر بالتوبة ، وما فيه من التحلية بعد التخلية ، وقوله عليه السلام « وصلوا الذي بينكم وبين ربكم بكثرة ذكركم له ، وكثرة الصدقة في السر والعلانية ، ترزقوا وتؤجروا وتنصروا » فيه تحذير من الشغل الشاغل عن المنعم ، وأن الذكر ، والصدقة ، لا يشغل عنهم شاغل لأننا نذكر الله قياما وقعودا ، ولأن الصدقة عطاء لا يشغل ، ومجيئهما بعد الأعمال الصالحة وهما منها ، للإشارة إلى أنهما من أكرم الأعمال الصالحة ، والإنفاق في سبيل الله من الرزق ، وليس اقتطاعا من الرزق ولا تعيش الأمة حياة أفضل من أن يتوفر لها الرزق ، والأجر ، والنصر ، والويل لنا إذا سقطنا فيما يضاد ذلك من فقر ، وذنب ، وهزيمة ، وليس الذي قلته هو ما في هذا الكلام

العالي وإنما هو فتح باب للتأمل المفضي بك إلى أسرار ومعان فيها صلاح الدين والدنيا معاً .

ومما نقله الباقلاني قوله عليه السلام الذي رواه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه « ألا إن الدنيا خضرة حلوة ، ألا وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون ، فاتقوا الدنيا ، واتقوا النساء ، ألا لا يمنعنَّ رجلا مخافة الناس أن يقول الحق إذا علمه » .

هذه كلمات ثلاث الأولى والثانية متقاربتان ، والثالثة مختلفة ، وراجع كلمة خضرة حلوة ، وتأمل عمق المعنى مع صفاء الكلام ، وإيجازه ثم تأمل تكرار كلمة« ألا »فى قوله عليه السلام : « ألا وإن الله مستخلفكم فيها » مع أنها من تمام معنى الكلام الأول ، ودلالة ذلك على خطر هذه الخلافة ، وعظيم حقها ، ثم تأمل العلاقة الحية بين هذا الكلام الشريف ، وبين أصله ، في قوله سبحانه: ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ﴾ (الحديد: ٢٠) وما وراء ذلك من تصوير لخضرتها ، وحلاوتها ، واختلابها ، ثم تصير هشيما تذروه الرياح ، وتأمل أيضا ذكر النساء ، والنص عليهن ، ولم يذكر البنين ، ولا الأموال ، والكل من خضرتها ، وحلاوتها ، وما وراء ذلك من التحذير من الغواية ، والاستهواء ، لأنهن أشد ما في خضرتها وحلاوتها ، من فتنة وغواية ، لأنهن أيضا مظنة أن يقع عليهن ظلم في حال الخلاف ، والطلاق أو إمساكها ضرارا ، أو عضلها عن أن تتزوج بعد انتهاء العدة ، لأن الذي خلفها هيئة اجتماعية يأبي أن يخلفه رجل آخر عليها وغير ذلك كثير جدا واقرأ سورة الطلاق لتجد التحذير من غضب الله موجها إلى الرجال في كل أحوال الطلاق بداية من طلاقهن لعدتهن ، وأحصوا العدة ، واتقوا الله ، ولم يوجه القرآن تحذيرا إلى المرأة في هذا الشأن لأنهن الجانب الأضعف .

وتأمل العلاقة الخفية بين وجوب الجهر بقول الحق ، وإن أغضب الناس وبين استخلاف الله لنا في الأرض لنقيم فيها الحق والعدل، وأن الله ناظر إلينا، وأن أجَل وأعظم ما في هذه الخلافة هو إعلاء الحق ، والإيمان بالحق ، والعمل لإحقاق الحق ، وطرح كل ما يعوق ذلك من مخافة الناس ، ومخافة السلطان الظالم ، هذا كلام لا نهاية لحسنه ، ولا نهاية لسداده وعمقه ، ويقول الباقلاني بعد ذكره لجملة من كلامه ﷺ وخطبه وكتبه : « فما أحسب أنه يشتبه عليك الفرق بين براعة القرآن وما نسخناه لك من كلام الرسول ﷺ في خطبه ، ورسائله ، وما عساك تسمعه من كلامه ، ويتساقط إليك من ألفاظه ، وأقدر أنك ترى بين الكلامين بونا بعيدا ، وأمدا مديدا وميدانا واسعا ، ومكانا شاسعا »[1].

ولم يعقب الباقلاني على كلام رسول الله ﷺ بكلمة واحدة ، تعين على معرفة قدره ، وإنما قدّر أن القارئ سيدرك الأمر المديد والبون البعيد بطبعه وقدرته على التدبر .

ومما يجب أن يذكر أن الباقلاني حين يُخلِّي بين الإنسان والقرآن ، وكلام الناس ، ليدرك الإنسان هذا الفرق الشاسع إنما يطبق منهج القرآن الذي اعتبر أصل الإيمان هو تدبر القرآن وأصل الكفر هو ترك التدبر ، وتكرر هذا كثيرا في الكتاب العزيز ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ (محمد:٢٤).

ويالیتنا نستطيع أن نقيم الدرس البلاغي على التدبر ، أو على الأقل ندخل التدبر جزءا من المنهج .

---

(١) إعجاز القرآن صـ ١٣٦ .

ويرصُد الباقلاني الفرق بين كلام الله وكلام الرسول ﷺ ويسجله في كلمة موجزة وبالغة الدقة والسداد ، وذلك في قوله :« نظم القرآن من الأمر الإلهي ، وكلام النبي ﷺ من الأمر النبوي »[1].

وهذا ربط جيد بين أقدار الكلام ، وأقدار المتكلمين ، وأن الكلام يوصف بما يوصف به مصدره ، ومخرجه ، وإذا نقلنا هذا إلى كلام الناس قلنا إن الكلام هو شمائل قائله ، وصوره العقلية ، والنفسية ، وهو ذاته ، وهذا كلام جيد ولا معنى له إلا أن يكون درس الشعر والأدب قائما على البحث عن ذات الشاعر والأديب وتحديد ملامحه ، وسماته ، وشمائله ، وطبائعه ، وغرائزه ، وإذا لم نفعل ذلك فلسنا من درس الشعر والأدب في شيء ، هذه الكلمة التي قالها الباقلاني توجب مراجعة منهج الدرس الأدبي ، وقد سبق بيانها في كلام الشيخ محمود شاكر .

والذي يعنيني هنا هو مدخلها في معرفة الإعجاز ، لأنها تعني أن كلام الله سبحانه وتعالى فيه شيء لا يمكن أن يكون في كلام غيره ، بما فيهم رسوله صلوات الله وسلامه عليه ، وهو عز الألوهية ، وهي الأمر الإلهي ، وأن كلام رسوله ﷺ فيه شيء لا يكون في كلام الناس ، وهو طابع النبوة ، وإنما التبس كلامه ﷺ بكلام الناس لأن الأمر النبوي الذي هو البلاغ عن الله قد يعبِّر عنه من بلغه ليبلِّغه كما بلغه ، لأن الأمر النبوي هو النبوة يعني مضامين كلامه ﷺ وليس نص لفظه ﷺ ، والأمر الإلهي في القرآن هو مراد الحق ، والمفهوم من كلامه سبحانه ، واللغة التي بلغتنا هي من مراده سبحانه ولهذا تعبدنا ربنا بتلاوته ، وكانت هذه اللغة آية ، كما كان مضمونها آية ، فإذا قرأنا قوله

(١) إعجاز القرآن صـ ١٣٦ .

سبحانه : ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ ﴾ (يس:٣٧) وجدنا فيها آيتين من آيات الله ، الأولى التي تحدث عنها القرآن ، وهو الليل نسلخ منه النهار ، ودلالة ذلك على القدرة المتفردة الواحدة ، المتصرفة ، في هذا الوجود ، والمالكة له ، لا يعجزها فيه ولا منه شيء ، والثانية هي العبارة القرآنية المعبّرة عن هذه الآية ، وهي الصياغة التي يقلبها لسانك فيجد فيها الأمر الإلهي ، الذي لا يمكن أن يوجد منه شيء في غير كلامه سبحانه ، وهكذا تقول في قوله سبحانه : ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٞ تَنتَشِرُونَ ﴾ (الروم:٢٠) تأملها تجد مضمونها آية تظل لها الأعناق خاضعة ، وتأمل نظمها وسبكها تجد هذا عدل ذاك ، وقوله سبحانه ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا ﴾ (الروم:٢٤) خلق البرق آية دالة على القدرة الباهرة والعبارة عنه آية مثلها كل منهما فيه الأمر الإلهي ، وهكذا تجد آيات الله في الكون وفى أنفسنا هي ذاتها آيات الله في حديثه سبحانه عن الكون ، وعن أنفسنا ، اللغة ومضمونها ، كلاهما برهان ، ليس أحدهما بأقوى من الآخر ، وليس شيء من ذلك في كلامه ﷺ لأن البشرية في كلامه ، تُدخله في جنس كلام الناس وإن كان كلامه ﷺ أفضل وأنبل ، وأغلى وأعلى كما تعلو هامة الرجل على هامات الرجال ويبقى منهم .

وإننا نقرأ الكلمة من كلامه ﷺ ونردّدها ونقلّبها فنجد فيها من روعة الفصاحة وسداد المعنى ، وصوابه ، وعمقه ، ودقته ، وصفاء العبارة ما يعز علينا وصفه ، كقوله عليه السلام : « ألا إن الدنيا خضرة حلوة ، ألا وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون » راجعها وتأمل ، وحاول أن تقترب من سر فصاحتها ، تعلم منها مراد العلماء بكلمة التناهي في الفصاحة ،

لأنك لا تجد في كلام الناس كلاما يتجاوز هذا القدر في البراعة ، والبيان ، والفصاحة وإنما يبقى في نفسك استشراف ، لأن تُجوِّد تجويدا يقاربها .

فإذا ما قرأت قوله سبحانه وتعالى : ﴿ فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْأَزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾

(غافر:١٤-١٨) .

لاشك أن قوله صلوات الله وسلامه عليه وقع في نفسي وفى نفسك الموقع الأجود ، والأفضل ، ووصل إلى السقف الذي لا تعرف من كلامنا كلاما يتجاوزه ، أما هذه الآيات فهي من البيان الذي لا يأتينا إلا من فوق السقف فيتجاوز الوسع ، ويتجاوز الحد ، الذي نطمع فيه ، أو نطمح إليه ، ونستشرفه ، اقرأ كلمة « رفيع الدرجات » وتأملها وضع بإزائها « الدنيا خضرة حلوة» وتأملها ، ثم اقرأ : « ذو العرش» وتأمل دلالتها على تمام الملك ، وتمام التعالي ، ثم اقرأ : ﴿ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ وهل تجد لسانا يطاوع صاحبه على أن يقول : ﴿ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾؟ أم أن هذا سلطان الألوهية لا يصدر إلا عنها؟ هل يستطيع أحد أن يقول : ﴿ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ إلا الذي ملك ، وخلق ، وعُبد ، وتَعبَّد عباده؟ ثم تأمل : ﴿ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴾ وكيف يدلك التعبير على أن قائله هو الذي يملك يوم التلاق ، وهو مالك يوم الدين ، ثم كرر

بلسانك ، وقلِّب بقلبك : ﴿ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ﴾ وارفع صوتك بها ثم تأمل كيف انتقل الكلام وترك وصف هذا المشهد المهيب ونودي في البارزين الذين لا يخفى منهم شيء ومنهم المعاند والجبار والفاجر والمنافق والخسيس والدنيء ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ﴾ تأمل ما فيها من استعلاء ، وسيطرة ، وتمام عز الربوبية ، وتمام سلطان الألوهية ، ولن يكون الجواب إلا ما ذكر ﴿ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ لأن الزيف والزّبد والباطل ، والنفاق ، والكذب ، كله ذهب جفاء ، ولا أطيل وإنما أذكر بقول الباقلاني : « وجه الوقوف على شرف الكلام أن تتأمل » وإنك حين تحسن تأمل كلام الله ورسوله ﷺ ستجد الفرق كعمود الصبح لأنه فرق بين الأمر الإلهي والأمر النبوى وهما لا يتقاربان أبدا ، وإذا كان كلام رسول الله ﷺ يأخذ بقلبك وعقلك وكلام الله سبحانه يأتيك من فوق قلبك وعقلك ، فإن هذا يدل دلالة ظاهرة على أن الجودة في الفصاحة والبلاغة لا حدود لها ، وأنها ترتقي في كلام الناس إلى نهاية تنتهي عندها ، ثم يأتي كلام الله بما هو فوق الطاقة ، وفوق الوسع ، وهذا مدى لا يُحد ، وقعر لا يدرك .

وهذه هي النعمة العظمى التي أنعم الله بها على هذه الأمة ، فكل خبر وكل أمر ، وكل نهي ، وكل تنبيه ، وكل زجر ، وكل خطاب ، خاطبنا الله به مَقْرون بالبرهان القاطع ، إنه خبر الله ، وأمره ، ونهيه ، ووعده ، ووعيده ، وذلك البرهان هو طريق البيان عن كل معنى وكل بلاغ من الله لنا .اللهم لانُحصِي ثناء عليك .

وإنك لتجد من أخبار القيامة أخبارا غريبة هي أغرب ما تسمعه أذن مثل أن تشهد علينا ونحن بين يديه أسماعُنا وأبصارنا وجلودنا بما كنا نعمله ،

وأن هذا يدهشنا في هـذا الموقـف فنقـول لجلودنـا لم شـهدتم علينـا فتقـول أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء .

اقرأ الخبر في سورة فصلت : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٠ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾

(فصلت: ٢٠، ٢١) » .

هذا أمر إلهي والبيان المعبر عنه من الأمر الألهي ، وهذا قاطع بأن ذلك سيكون ، وإذا حدَّثتك نفسُك باستبعاده فتأمل طريقة بيانه ، تجد الأمر الخارق ، ومادمت تواجه ببيانه الأمر الخارق فلا تستغرب الأمر الخارق في إنطاق جوارحك ، وشهادتها عليك ، والذي خلقها هو الذي سينطقها ، وليس في ذلك غرابة في الحقيقة . وأجل لحظة وأكرم ساعة عند أهل الإيمان هي الساعة التي تتجلى لهم فيها آيات الله ، مثل اللحظة التي رأى فيها السحرة عصا موسى وهي تلقف ما يأفكون فسجدوا لله ، وداسوا بأقدامهم عزة فرعون ، وقبلوا تحدِّيه ، وهو يقول لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ، وهم لا يزيدون على أن يقولوا ـ لا ضير ـ هذه لحظة قلبت نفوس السحرة رأساً على عقب ، وكانوا قبل ذلك بقليل يقولون لفرعون إن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين فيقبل فرعون ويزيدهم ﴿ وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴾ (الأعراف: ١١٤) وكانوا أيضا يقسمون بعزة فرعون الذي يقولون له الآن لا ضير .

وهكذا أجل لحظة في حياة موسى عليه السلام حين سمع من جانب الطـور يا موسى إنى أنا الله رب العالمين ، وحين رأى الحواريون عيسى عليه السلام

يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيرا وحين رأى بنو إسرائيل موسى عليه السلام يضرب البحر بعصاه فينفلق البحر وهكذا .

وترى قلوب المؤمنين تطلب من الله المزيد من الآيات لتثبيت الإيمان ، وأبو الأنبياء يقول ﴿ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ (البقرة:١٦٠) والحواريون يقولون ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ (المائدة:١١٢) ومن فضل الله على هذه الأمة أنها مع هذه الآيات البينات ، كلما سمعت آية أو قرأت آية ، والمسلم اليقظ حين يقرأ فاتحة الكتاب في الصلاة يكون في الحالة التي كان عليها الحواريون وهم يأكلون من المائدة ، التي أنزلها الله عليهم ، ويكون في الحالة التي كان عليها إبراهيم عليه السلام وهو يرى الأربعة الطير تأتى إليه ، ويكون في الحالة التي سمع فيها موسى ربه وهو يقول له إني أنا الله ، ويكون في الحالة التي سمع فيها داود الجبال وهي تسبح وهذا هو معنى تمام النعمة المذكور في سورة المائدة ، والذي هو في آخر مانزل من الكتاب العزيز : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ﴾ (المائدة:٣) ولا يزيغ عن هذا إلا هالك ، وهذا هو الأمر الإلهي الذي ذكره الباقلاني في الفرق بين كلام الله وكلام نبيه ﷺ .

وأعود إلى اختيارات الباقلاني من الكلام المأثور عن السلف وأهل البيان والفصاحة وأبدأ بتسجيل رأي الباقلاني في فصاحة الجيل الذي نزل فيه القرآن ، وخوطب بالتحدي ، وأن رأي الباقلاني فيه هو ما أجمعت عليه الأمة من أن كلامهم هو أصفى ، وأرقى ، وأفصح بيان ، بعد كلام الله وأن الأجيال التي أتت وتأتي بعدهم لا يمكن أن تسبقهم ، وقصارى ما تصل إليه هو أن تلحقهم وأن هذا هو مقتضى توجيه الخطاب المتحدِّي لهم ، وأن عجزهم برهان على أنه كلام الله . وأنه حجة على غيرهم .

يقول الباقلاني« إن فصاحة أولئك في وجوه ما كانوا يتفَنَّنون فيه من القول مما لا يزيد عليه فصاحة من بعدهم ، وأحسن أحوالهم ، أن يقاربوهم ، أو يساووهم ، فأما أن يتقدَّموهم أو يسبقوهم فلا »[1].

وهذا مما يجب أن يكون على ذكر منا لأن الغفلة عنه تؤدي إلى الشبهة حول الحجة .

ثم إن هذا الإجماع يوجب علينا مزيد العناية بدراسة بيان هذا الجيل ، وكيف كان أصفى ، وأنقى ، وأعرق ، وفى أي عنصر من عناصره كان الصفاء ، وكان التفوق ، وبين أيدينا لمع من كلام العلماء تعين على هذا الدرس ، منها قول أبي بكر بن الطيب في بيان السبب في قله شيوع البديع في لغة هذا الجيل ، ثم كثرته في الأجيال اللاحقة : قال : « وأهل زماننا الآن يُصنّفون نحو هذا تصنيفا ـ يريد البديع ـ ويؤلفون المحاسن تأليفا ، يوشحون به كلامهم ، والذين كانوا من قبل لغزارتهم وتمكنهم ، لم يكونوا يتصنّعون لذلك ، وإنما كان يتفق لهم اتفاقا ويطرد في كلامهم اطرادا »[2].

وهذا النص معناه أن البديع كان يشيع ويتكاثر ، بمقدار ما يداخل السلائق من وهن ، وأنه كان يؤتى به لملء فراغ ، وسدَّ ثُلْمة ، ورأب صدع ، كان يداخل الكلام بمقدار قلة غزارة الينبوع ، وأن الجيل الأول لم يكونوا يتصنعون له لغزارة معانيهم ، وتمكنهم من أدواتهم ، فأغناهم هذان الأمران ـ الغزارة والتمكن ـ ولو راجعت هاتين الكلمتين لرأيتهما معا عمود البلاغة ، وأن الذين امتلكوا ذروة البيان ولم ينازعهم أحد فيها ، ولن ينازعهم إنما

(١) إعجاز القرآن صـ ٢٥٠ .
(٢) المرجع السابق صـ ١٨٢ .

امتلكوها بهاتين : الغزارة التي لا معنى لها إلا تدفق المعاني ، والخواطر ، والصور ، والأحوال ، والمشاعر ، والتمكن من اللغة والخبرة التامة ، والكاملة بمجاريها على معانيها ، واقتدارها على استيعاب كل ما يتدفق به القلب ويجيش به الصدر .

وقد ذكر أبو حيان التوحيدي وهو يحدّث في مفاخر العرب أنك تجد الأعرابي ليس في رجليه حذاء وعليه بشت خشن ثم يقوم مقاما تنهال عليه فيه المعاني ، وتتغازر ، ويدخل منها في كل باب ، فيتكلم في الشرف ، والسؤدد ، والمروءة ، وإجابة الصريخ ، ومكارم الأخلاق ، وقرى الضيفان ، وحماية الجار ، جيل كأن الله سبحانه وتعالى أعدّه لهذه الحقبة الفاصلة في تاريخ الديانات وفى تاريخ البشر .

وأسمى منزلة في البيان في هذا الجيل كانت منزلة بيان رسول الله ﷺ ولما تفوق بيانه عليهم صار هو عليه السلام أفصح من نطق بالضاد ، ومع ذلك يتماس كلامهم مع كلامه عليه السلام في بعض جوانبه فيختلط ويحتاج الفصل إلى علم وروية .

وكنت وأنا أصنع كتابي في شرح أحاديث من صحيح البخارى أتوقف كثيرا في الأحاديث الطوال ، كحديث الهجرة ، وحديث بدء الوحي ، وأجد فيه كلاما لرسول الله ﷺ ، ولغيره ممن يذكرون في الحديث كعائشة رضوان الله عليها ، وأبي بكر ، وسراقة بن مالك ، وغيرهم وأجتهد في أن أدرك فروقا بين هذه الأساليب ، ولا يخفى عليَّ إدراك تميز كلام رسول الله ﷺ ، وقد يخفى إدراك الفرق بين كلام عائشة وكلام أبيها ، رضوان الله عليهما ولا يخفى الفرق بين كلام عائشة وكلام سراقة بن مالك ، وإن كان من

الصعب تحديد الفروق حين تظهر ، وهذا باب من أبواب النظر يجب أن نألفه ، وأن نكثر منه ، وقد يستطيع فيه أحدنا ما لا يستطيعه الآخر .

وكان الباقلاني يحسن اختيار الكلام ويحسن تفقده ، ولهذا اختار من كلام أصحاب رسول الله ﷺ وغيرهم أطيبه ، وأصفاه وما لا تجد في معناه أفضل منه ، وذلك مثل قول أبي بكر رضوان الله عليه : « إن أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ له بحقه ، وإن أضعفكم عندي القوي حتى آخذ منه الحق » وهذا من أنبل الكلام وأجوده ولا يعبر حاكم عن قيامه بالعدل بين الناس بأفضل من هذا ، ولا بأشمل منه ، ولا بأصح منه ، ولا يستطيع لساني أن يبلغ كنه وصف هذه الكلمة الجليلة ، وخصوصا أننا نعيش تحت مظلة ظلمة يتشدقون بالعدل ، وبالقيم وحقوق الإنسان وهم الذين يدمرون العدل والقيم وحقوق الإنسان ، أبو بكر يقول إن أقوى الناس في المجتمع هو هذا المظلوم الذي ظلم لضعفه ، وقلة ناصره ، هذا أقوى الناس حتى يُقَاد لَهُ ، ويقول إن الجبار الظالم أضْعف الناس في المجتمع حتى يقاد منه ، هل وجدت هذا في أرفع أنظمة الحكم وأكثرها تقدما ، وأكثرها ديمقراطية ، عجيب أنت أيها الصديق الملهم ، ثم يختار الباقلاني له أيضا قوله رضوان الله عليه : « والذي نفسي بيده لأن يُقدَّم أحدكم فتضرب رقبتهُ في غير حدٍّ خير له من أن يخوض غمرات الدنيا » .

قلت إن حسن الكلام ليس له نهاية يقف عندها ، ولو قلت لك إن هذا أفضل بيان جرى عليه لساني بعد كلام الله وكلام ورسوله فلا تعجل باللوم ، وخصوصا إذا كررت هذه الكلمة مع بيان آخر لأن للكلام العالي أُخذة كأُخْذة السحر ، تأمل هذا القسم الجليل الذي كأني أقرأه لأول مرة مع شيوعه في الكلام ، والذي دل على عمق إحساس أبي بكر بواجب النصح

الصادق المخلص لهذه الأمة ، وتنبيهها إلى المهلكة والمحرقة التي تجتث أصولها ، إذا خاضت غمرة الدنيا ، يعني عاشت حضارة مادية بحتة كما يراد لها الآن .

ويجب أن نذكر أن أبا بكر الذي يحذر بهذا الإشفاق من خوض غمرة الدنيا هو خليفة رسول الله ﷺ ، وهو الذي يجهز جيوش الفتح ، وهو الذي يقيم العدل والرحمة ، وهو الذي يقول أقواكم عندي أضعفكم حتى آخذ الحق منه ، وكل هذا يعني أن خوض الغمرة الذي ينهانا عنها رضوان الله عليه ليس معناه أن نغسل أيدينا من الدنيا ، وإنما معناه أن نجاهد الباطل ، ونجالد حتى نقيم فيها الحق والعدل ، وأن نكون أهلا لخلافة الله في الأرض ، وأن نعمرها بالبرِّ والخير ، وأن نطوِّعها لأمر الله ونهيه ، والخطأ المنهي عنه أن نطوع أمر الله ونهيه لها ، جهادنا يتلخص في أن نقيم الدنيا على منهج الدين ، وهذا هو معنى التعبد الذي خلقنا الله سبحانه وتعالى له .

ثم تأمل قول أبي بكر : « فتضرب رقبته » ولم يقل عنقه ، لأن الرقبة فيها إشارة إلى العبودية ، وأن يقدَّم وهو ذليل ، مقهور ، مغلوب على أمره وقوله « فى غير حد » تأكيد لهذا الإذلال ، وأنه يضرب مظلوما لا يدفع عن نفسه ، ولا يُدفع عنه ، ولاحظ المقابلة الخفية بين هاتين الصورتين ، صورة من تضرب رقبته في غير حد من غير أن ينتصر ، ومن غير أن يجد من ينصره ، وصورة الخائض في جاهها وسلطانها ومالها ، وخضرتها ، وحلاوتها ، يقسم أبو بكر على أن الأول أفضل .

ويعرض الباقلاني من كلام سيدنا عمر هذه الكلمة الفاخرة التي كتب بها إلى سيدنا أبي موسى الأشعري والتى منها « إن الحق في مواطن الحق يُعظم

الله به الأجر ، ويُحسِنُ به الذُّخْر » وهذه الكلمة لو وضعت في ميزان وقابلها كل ما قاله الناس في معناها لرجحت ، وتأمل كلمة مواطن الحق ، يعني الموقف الذي لا يجوز فيه الصمت ، ولا تجوز فيه المواربة ، ولا يصدع بالحق في مواطنه إلا رجال الله ، وهذا هو جنس جهادنا في هذه الأرض ، وليس إدارة ظهورنا لما يجري فيها .

ومن كلام سيدنا عثمان لما أحيط به قال فيما كتبه إلى سيدنا على رضوان الله عليهم جميعا : « فقد بلغ السيل الزُّبى ، وجاوز الحِزامُ الطبيين وطمع في من لا يدفع عن نفسه » تأمل العبارة عن مجاوزة الحد بقوله : « بلغ السيل الزبى » والزبى جمع زبية وهي أعلى الجبل ، وتأمل قوله بعده : « وبلغ الحزام الطبيين » والطبيان واحده طبى ، وجمعه أطباء وهو من السباع والخيل موضع الأخلاف ، قال المبرد : « فإذا بلغ الحزام الطبيين فقد انتهى في المكروه » .

ومن كلام سيدنا على كرم الله وجهه ذكر الباقلاني كلمته البليغة التي قالها يوم قبض أبو بكر ، وارتجت المدينة بالبكاء ، وجاء علىّ باكيا ، مسترجعا ، وهو يقول اليوم انقطعت خلافة النبوة ، حتى وقف على باب البيت الذي فيه أبو بكر ، فقال بعد ما عدّد مناقب أبي بكر : « فجللت عن البكاء ، وعظمت رزيتك في السماء ، وهدّت مُصيبتك الأيَّام ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ؛ رضينا عن الله قضاءه ، وسلمنا له أمره ، فوالله لن يصاب المسلمون بعد رسول الله ﷺ بمثلك أبدا ، فألحقك الله بنبيه ، ولا حرمنا أجرك ، ولا أضلنا بعدك ، وسكت الناس حتى انقضى كلامه ثم بكوا حتى علت أصواتهم »[1].

---

(١) إعجاز القرآن صـ ١٤٥ .

وبعد ما نقل الباقلاني ما نقل مما اختاره من كلام الصفوة رضوان الله عليهم بين الغاية التي يريدها وهي الاجتهاد في استكشاف الفرق الهائل بين كلام هذه الصفوة ، وما نقرأه في المصحف ، ولم يطلب منا الباقلاني إعداد معرفة ، ولا مراجعة أفكار ، ولا مدارسة علوم ، وإنما طلب شيئا واحدا هو أصْعب من المدارسة ، والمراجعة ، وهو تفريغ اللب ، واجتماع العقل ، والنفس ، والتحامها بالكلام ، وشدة ملابستها له ، وشدة مزاولتها له ، وحينئذ يظهر الفرق كعمود الصبح ، من غير حذلقة بعلم ، ولا تنطّس بفقه ، ولا فيهقةٍ بمنهج ، وهذا هو الطريق الذي يستطيع أن يسلكه كل من يقرأ في الكتاب العزيز ، لينال من هدايته أقصى ما يتاح له ، سواء كان باحثا عن إعجازه ، أو باحثا عن خشية قلبه ، وسالكا سبيل التعبد ، وذلك لعموم الأمر بالتدبر .

وبالتدبر وحده يقع لك الفصل بين كلام الناس وكلام رب العالمين ، وتعلم أن نظم القرآن يخالف نظم كلام الآدميين ، وتعلم الحد الذي يتفاوت بين كلام البليغ ، والبليغ ، والخطيب ، والخطيب ، والشاعر والشاعر ، وبين نظم القرآن جملة»[1].

راجع هذا النص لأنه من خلاصات فكر الباقلاني الذي يقول فيه إن التأمل يهدي إلى معرفة ما بين كلام الله وكلام الناس ، ويهدي إلى معرفة التفاوت بين شاعر وشاعر ، وخطيب وخطيب ، وبليغ وبليغ ، وهذه نتائج لا يهدي إليها العلم ، وإن اتسع إذا غاب التأمل والتدبر ، وقد ذكرت أن التأمل لابد أن يكون مؤسسا على العلم بطرائق العرب ، ومجاري لغتها في الإبانة عن

(١) إعجاز القرآن صـ ١٥٤ .

معانيها ، وإلا كان تدبرا كتدبر الذي أغمض عينيه ليعرف ملامح الشيء ووصفه .

وبمقدار سعة ، ودقة العلم ، بأحوال الأبنية اللغوية ، والقدرة على جمع العقل والخواطر وتفريغ اللب ، واليقظة الحية المتوترة والمتنبهة إلى كل ما في هذه الأبنية من خفي وجليّ ، وصريح ومكنّي ، تكون هذه النتائج المتسعة لهذا التدبر ، وقلت إن الأمر بتدبر الكتاب العزيز أمر عام يشترك فيه العالم والجاهل لأن التدبر يعطي كل متدبر بمقدار أدواته ، فقد نجد الرجل العامِّي يكرر آيات من القرآن وعيناه تذرفان ، لأن عطايا القرآن متسعة ومتنوعة ولكنه لا ينال شيئا منها من غير التدبر .

والتعويل على التدبر والتأمل الذي جعله الباقلاني الأصل والفرع في هذا الباب يأتي في كلام عبد القاهر عملا واجبا لا ينبنى النظر البلاغي إلا عليه ، والنظر البلاغي عند عبد القاهر هو التعليل ، والتحليل ، يعني محاولة التعرف على سبب الحسن ، فيما هو حسن ، وسبب الأحسن فيما هو أحسن ، ولا يكون هناك سبيل إلى التعرف إلا بعد التأمل ، ومراجعة النفس ، لإدراك الحسن ، والأحسن ، فإذا وجدت الأثر بعد المراجعة ، والتدبر ، بحثت بحثا ثانيا لتعرف سبب أن راقك الكلام وعظم عندك ، وحينئذ تدخل مباحث البلاغة ، لأنك قد تجد سبب أن راقك أنه قدم فيه لفظ على لفظ ، أو عُرِّف أو نكر ، أو فصل ، ووصل ، أو ذكر ، أو حذف إلى آخره ، وحين نضع منهج الباقلاني في سياق تطور هذا العلم نجد عبد القاهر يتفق معه في إعمال العقل بأقصى طاقة ممكنه لإدراك ما في النص ، ويكتفي الباقلاني بهذا ثم ينتقل عبد القاهر إلى مرحلة أخرى هي معرفة السبب والعلة ، وهذا صعب جدا بخلاف الأول يعني معرفة أن هذا حسن وهذا أحسن ويراه عبد القاهر

من القدرات العامة وأنه ليس من إنسان إلا وهو يعرف أن نظما أحسن من نظم ، ومعرفة سر هذا الحسن والأحسن هو العلم القليل الرجال كما قال .

ومن المفيد أن نذكر جزءا كبيرا من مصادر الدراسة الأدبية في تراثنا وهي الكتب التي تقوم على جمع مختارات من الشعر والنثر في أبواب المعاني ، كالعقد الفريد ، وزهر الآداب ، ولباب الآداب ، وغيرها وأن الدراسة النظرية في هذه الكتب قليلة جدا ، لأن تربية الملكة البيانية كان هو الأساس ، ويجب أن يظل هو الأساس ، وهذه الملكة هي التي تعين على معرفة فروق الكلام وطبقاته .

وتأليف الباقلاني لكتابه فيه الكثير من توجهات هذه المؤلفات ، ترى ذلك في النصوص الكثيرة التي شغلت الكتاب ، وفى التعليقات القليلة ، وأن المعول عليه هو تأمل هذه النصوص ، كما فعل ابن عبد ربه ، وأبو إسحاق الحصري ، وغيرهم ، وبهذا التأمل ، وهذه المزاولة تسكن اللغة فينا ، ونمتلكها ، ونستطيع أن نتحدث عنها ، أما حديثنا عنها وهي غائبة عنا فهو حديث عن غائب ، وهذا الحديث عن اللغة الغائبة لا قيمة له ، وهذا هو سبب ضعف مستوى الدارسين .

وابن خلدون المتوفى ٨٠٨ هـ يدل على طريق تحصيل الذوق في اللغة وأنه ليس بطول النظر في القواعد وإنما بالالتقاء المباشر بكلام العرب وتكراره على السمع قال : «الذوق ملكة إنما تحصل بممارسة كلام العرب ، وتكراره على السمع والتفطن لخواص تراكيبه ، وليست تحصل بمعرفة القوانين العلمية التي استنبطها أهل صناعة اللسان»[1].

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص١٢٨٩ .

ومن غير المفهوم أن نعلم لغتنا لأبنائنا من خلال القوانين النحوية والبلاغية ونلاحظ بعدهم عنها وضعفهم فيها بسبب هذا المسلك وبين أيدينا هذه التوجيهات الجليلة والتى تفضي إلى تكوين ملكة الذوق اللغوي وهو أول ما تعني به التربية وأفضل ما تعني به التربية .

* * *

والآن أتابع بعض تعقيبات الباقلاني على بعض الآيات التي ذكرها ، لأنه وإن كان لم يعقب على ما اختاره من كلام الصدر الأول ، فقد أعقب بعض الآيات بما يبين بعض وجوه الإعجاز البلاغي التي كان يراها فيها ، ومنها نستطيع أن نُلم بأصول الإعجاز عند الباقلاني بالإضافة إلى الوجوه التي ذكرها وحللناها في كتاب الإعجاز . وقد بدأ الباقلاني رحلته في تصوير الإعجاز والاستدلال عليه وتفصيله بقوله : « نحن نذكر لك في تفصيل هذا ما نستدل به على الغرض ، ونستولي به على الأمد ، ونتصّور إعجازه كما نتصور الشمس ، ونتيقن بلاغته كما نتيقن الفجر »[1].

والذي أقصد إليه في هذا القسم هو التعرف على طريقه الذى به يصوِّر الإعجاز حتى نستيقنه ، وهذه غاية جليلة نرجو من الله التوفيق فيها . وأضيف حقيقة هي أن كل المناهج التي اتجهت إلى بيان الإعجاز وتجليته تصيب وتفيد مهما اختلفت مناهجها وتباعدت وذلك لقوة ظهور هذا المعنى في القرآن الكريم .

---

(١) إعجاز القرآن صـ ١٨٤ .

يقول الباقلاني في قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ ﴾ (الشورى:٥٢،٥٣)

« فانظر إن شئت إلى شريف هذا النظم ، وبديع هذا التأليف ، وعظيم هذا الرصف ، كل كلمة في هذه الآية تامة ، وكل لفظ بديع واقع »[1].

قوله « شريف النظم وبديع التأليف وعظيم الرصف » كل هذا ضُمّه إلى المعجم البلاغي الغامض الذي فك عبد القاهر كل رموزه ، وتوقف فقط عند قوله : « كل كلمة في هذه الآية تامة » .

ولا قيمة لكلام نقوله إذا حفظنا أوصاف العلماء لأثر البلاغة في نفوسهم وكررنا هذا المحفوظ ، وكتبناه ، وخاطبنا طلابنا به ، من غير أن نراجع الكلام الذي وصفوه ، ونجد في نفوسنا مثل ما وجدوا ، وهذا هو الفرق بين علمنا الذي تتناقله ألْسِنَةٌ عن ألْسِنَةٍ ، وعلمهم الذي كان ثمرة مراجعة وتأمل وتدبر ، واستوعبته قلوب عن قلوب .

راجع الآية بنفسك لتتحقق أن كل جملة فيها تامة ، وسأكتبها لك جملا مفردة :

١- ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَا ﴾ .

٢- ﴿ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ ﴾ .

٣- ﴿ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَا ﴾ .

---

(١) إعجاز القرآن صـ ١٨٧ .

٤- ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ .

٥- ﴿ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ .

٦- ﴿ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴾ .

ولك أن تضم السطر الخامس إلى السطر الرابع لأنه من تمامه وإنما فصلته لحاجة ستظهر .

والمهم هو أن الباقلاني نظر في هذه الجمل فوجد كل جملة فيها تفيد معنى مستقلا بنفسه ، لا يحتاج إلى ما قبله ، ولا يحتاج إليه ما بعده ، وإذا خاطبت بها خاطبت بمعنى تام ، قل : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ ، وقل : ﴿ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴾ ، وقل : ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ ﴾ أنت في كل هذا تفيد معنى جليلا جدا ومتسعا جدا ، فإذا ما وضعت هذه الجمل في نسقها القرآني وجدت الترابط والتلاحم على وجه لا يتصور وجود أفضل منه .

وكان هذا من أفضل وجوه البلاغة التي استخرجها الباقلاني ، ووقف عندها في آيات كثيرة ، وكررها ، وهو يَعْجَبُ ويُعَجِّبُ من بلاغة القرآن المعجزة من هذا الوجه .

ويقول الباقلاني في الآية نفسها : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ يدل على صدوره من الربوبية ، ويبين عن وروده عن الألوهية « وهذه الكلمة بمنفردها وأخواتها كل واحدة منها لو وقعت بين كلام تميّز عن جميعه ، وكان واسطة عقده ، وفاتحة عقده ، وغرة شهره ، وعين دهره» .

ونستخلص من هذا النص أصلين من أصول البلاغة القرآنية المعجزة أو البلاغة الخاصة بالقرآن ، الأصل الأول صدوره عن الربوبية ، وإبانته عن

وروده عن الألوهية ، والثاني هو أن الجملة القرآنية لا تشتبه عليك إذا وقعت مقتبسة في درج كلام ، ولا تحتاج منك إلى مراجعة ، حتى تستخرجها ، وإنما تراها متميزة تميزا ظاهرًا ، لأنها ليست من جنس الكلام الذي دخلت فيه ، يعني تراها رؤية لا تلتبس كما ترى الشيء الذي دخل في غير جنسه ، وقد ذكر الباقلاني هذا من ضِمْن الوجوه العشرة التي ذكرها للإعجاز ، وهو ظاهر وقد تكلم فيه الناس ، ثم هو مما يدرك بالطبع لشدة التميز ، والمهم هو الأصل الأول وهو مع شيوعه في الكتاب العزيز ، وقوة دلالته على أنه كلام الله ، وقوة برهانه على استحالة صدوره عن النفس البشرية ، هو مع هذا وأكثر منه ، لم يُعط حقه في البحث والدرس ، والمراد به الآيات والجمل التي يخبرنا فيها ربنا عن فعله سبحانه في خلقه ، كما في قوله جل شأنــه : ﴿ لَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَٰهُ حُطَٰمٗا فَظَلۡتُمۡ تَفَكَّهُونَ ٦٥ إِنَّا لَمُغۡرَمُونَ ٦٦ بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ ٦٧ أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلۡمَآءَ ٱلَّذِي تَشۡرَبُونَ ٦٨ ءَأَنتُمۡ أَنزَلۡتُمُوهُ مِنَ ٱلۡمُزۡنِ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡمُنزِلُونَ ٦٩ لَوۡ نَشَآءُ جَعَلۡنَٰهُ أُجَاجٗا فَلَوۡلَا تَشۡكُرُونَ ﴾(الواقعة:٦٥-٧٠).

كلمة ﴿ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡمُنزِلُونَ ﴾ وكلمة : ﴿ لَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَٰهُ حُطَٰمٗا ﴾ ، ﴿ لَوۡ نَشَآءُ جَعَلۡنَٰهُ أُجَاجٗا ﴾ كل هذا صادر من الربوبية ، وفيه برهانه ، ودليله ، لأنه لا يجعل الزرع حطاما لو شاء إلا الذي خلقه ، ولا يجعل الماء أجاجا لو شاء إلا الذي أنزله من المزن ، وهكذا قوله سبحانه : ﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ﴾

(فصلت:١١) .

ورود هذا عن الألوهية ظاهر وهل رأينا في الكلام من قال للسماء وللأرض أئتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين؟وهل تطيق نفس إنسانية أن

تقول هذا ؟ وقل مثله في آيات كثيرة : ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ ﴾ (هود:٤٤) ، ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ ﴾ (طه:٥،٦) .

وهذا الوجه من وجوه البلاغة الخاصة بالقرآن كرره الباقلاني كثيرا جدا وفى آية الشورى ترى عز الألوهية والصدور عن الربوبية في قوله سبحانه : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَا ﴾ وتأمل المعنى ، وهل يوحي الروح من أمره أحد غير الله؟ وهل يتصور في عقل أن يقول محمد عليه السلام مثل هذا ، وهو يعني نفسه؟ هل تستطيع نفس محمد أن تُلْغِيَ هذه المسافة بين من يملك الوحي وبين من ينزل عليه الوحي؟ أم أن هذا لا يتصور أن يكون إلا إذا نزعت عقولنا من رءوسنا؟ لا أشك في أن مثل هذا يُتّصَورُ به الإعجاز كما تُتَصَوَّر الشمس لأنه ليس مما للآدمي فيه مجال ، ولا لبشري فيه مثال كما يقول الباقلاني .

وينتقل الباقلاني إلى آخر الآية وهو قوله سبحانه ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ ﴾ ويهديه التدبر إلى ملاحظة أن المعاني من أول الآية ، تتآخى ، وتتقارب ، وتتآلف ، وكأنها أخوة من أب ، وأم ، ثم تختم بمعنى مختلف ، وكأنه عِرْق جاءها وداخلها من غير أصولها ، وهو قوله سبحانه : ﴿ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ ﴾ .

وراجع أنت حتى تجد ما وجد الرجل ، وستجد الكلام السابق في الوحي الذي هو روح ، والذي هو نور ، وأن الله سبحانه أوحى به إلى نبيه صلوات الله وسلامه عليه ، ليبلغه فحسب ، ويترك أمر هداية من بلغهم إلى الله لأن

الهداية إلى وحي الله لاتكون إلا من الله، يهدي به سبحانه إلى صراط مستقيم، صراط الله الذي له ما في السموات والأرض، وهذا كله كما ترى مادة واحدة، ثم ينتقل الكلام فجأة إلى الآخرة، وصيرورة الأمر لله سبحانه وحده، أقول هكذا كان يتأمل الباقلاني، وفيه إدراك دقيق لما بين المعاني من تقارب، وتباعد، وهذا قد يظن أنه يدرك ببديهة النظر، وليس كذلك، وجرّب نفسك مع آيات المصحف وراجع وحدّد العلاقات تجد نفسك أمام باب لا يدرك مع الغفلة، والمهم أن الباقلاني فطن إلى ما هو أخفى وأغمض وهو أن هذا المختلف صار مؤتلفا بشريف النظم، وهذا من أجل وأصفى وأغمض وأنبل ما في البيان، وهو عند الباقلاني موضع حفاوة، وعناية، وكان شديد التنبه إليه كثير الإيراد له، وهو أصل برأسه في بلاغة الذكر الحكيم التي بها بهر وقهر.

وتذكر أن الباقلاني يثير، لأنه فرض منهجا مَسْهُوًّا عنه، لأنه أنكر البديع الذي هو البلاغة، وأن الإعجاز يعرف من جهتها، ثم طرح أصولا، وبدائل، يعرف بها الإعجاز، وهذا هو الذي عنيتُه بقولي أن الباقلاني يثير، ويستفز، ويرفض، وينفي، ويثبت، وهذه هي قيمته، ولا يجوز إغفال البدائل التي طرحها بعد ما نفى البديع الذي هو البلاغة، والخيط الذي أحرص على أن أظل ممسكا به هو جمع هذه الأصول التي طرحها بديلة للبديع وهي إلى الآن الأمور الدالة على صدوره عن الألوهيه، واستقلال الجملة القرآنية بمعناها استقلالا يُغنيها عما قبلها، ويغنيها عما بعدها، والذي نحن فيه الآن وهو تأليف المختلف بشريف النظم.

وقد وقفت لأتبين مراده بشريف النظم الذي ألف به المختلف في الآية،

ونبهت فيما كتبت إلى أن الآية الكريمة لما تحدثت عن الصراط المستقيم لم تقل مثلا في البدل أو البيان صراط العزيز الحميد ، ولا صراط الذين أنعمت عليهم وكلها دالة على أنه صراط ربنا سبحانه ، ودينه الحق وشرعه القويم ، وإنما الذي جاء في الآية : ﴿ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فأشارت إلى أنه المالك لكل شيء ، فاقتربت جدا من المختلف ، لأنه سبحانه ما دام يملك ما في السموات والأرض فلا يجوز رجوع ما في السموات والأرض لغير مالكها عز شأنه ، فكان قوله سبحانه : ﴿ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ هو الذي ألف المختلف ، وقد رأيت ذلك في آيات كثيرة تجمع معاني متعددة ومتباعدة يؤلف بينها نهج بيانى واحد ، فيضم نشرها ، وتصير به مؤتلفة متقاربة ومتماثلة .

وإذا راجعنا عبد القاهر الذي فسّر شريف النظم ، وبديع التأليف ، وعظيم الرصف ، وكل ما هو من هذا الباب بالنظم الذي هو توخي معاني النحو على وفق الأغراض والمقاصد ، وقلنا إنه خطا بالإعجاز خطوة كبيرة بعد الباقلاني الذي لم يشر إليه ، وهي التعليل والتحليل ، أو كما قال هو البحث عن العلل التي بها كان التباين في الفضل ، وطبقنا منهجه على الآية قلنا إن موضع المزية في أن قال سبحانه أوحينا إليك فأسند الوحي إلى ضمير العظمة ، ثم قدم الجار والمجرور الذي هو إليك على المفعول الذي هو« روحا » ونكّر هذا المفعول ووصفه بالجار والمجرور (من أمرنا).

وهذا يبدو في الظاهر تحليلا للبناء اللغوي ، وطريقة تأليفه ، وتركيبه ، وعلاقاته ، ومواقع كلماته ، وهو في الحقيقة بيان لعمق المكونات في الجملة والتى استطاعت بهذا البناء الرائع وهذا الإسناد الحي ، أن تحيط بهذه الحقيقة

الكبيرة الخالدة ، ولابد من الوقوف عند كل رابطة ، واستخراج كل ما وراءها مما ظهر وخفى ، ولا معنى لإسناد الوحي إلى ضمير العظمة إلا أن هذا الوحي لا يكون إلا من الذي يملك أن يوحي ، وهو الحي القادر ، الخالق البارئ المصور ، وهذا هو معنى صدوره عن الربوبية ، الذي قاله الباقلاني ، ثم إن تقديم الجار والمجرور لا معنى له إلا مزيد الإكرام ، والمنّ والفضل على من اصطفاه ربه ، واختاره ، ليبلغ عنه سبحانه ، ولو أخرنا هذا الجار والمجرور لذهب هذا المعنى ، ولخرجنا إلى كلام آخر ، ثم إن التنكير في كلمة روح يعني أنه روح ليس هو الروح المعروف ، وإنما روح من نوع آخر روح لا تحيا بها الأجسام ، وإنما روح تحيا بها الروح ، ثم إن هذا الوصف الذي هو (من أمرنا) فيه مزيد عناية بهذا الروح الموحي به ، ومزيد تنويه ، وتعظيم ، وإغراء لمن أنزل فيهم بوجوب الاتباع ، وحسبه أنه أمر من أمره سبحانه الرحيم الودود ، القريب المجيب .

عبد القاهر حين يتكلم عن العلاقات إنما يفتح بهذه العلاقات ومن هذه العلاقات بابا للقلب والعقل ليتدبر ، ويراجع ويفهم ، فلو تكلمنا عن العلاقات وسكتنا عن ما وراءها من الأسرار والدقائق التي مستقاها العقل ، نكون كمن فُتح له الباب ولم يدخل ، وليس القصور من الذي فتح الباب ، ولهذا أقول إن ثمة علاقة وثيقة بين عبد القاهر ومن قبله من البلاغيين ، ومنهم الباقلاني الذي كان هو الآخر يستخدم اللغة التي وصفها عبد القاهر بالرمز ، والإيماء ، وذلك كقول الباقلاني شريف النظم ، وبديع التأليف ، والرصف ، ولو عزلنا شرف النظم وبديع التأليف والرصف عن المقاصد ، والمعاني التي يتوخى البليغ معاني النحو للإبانة عنها ، نكون قد صيرناها

كلاما لا معنى له ، ومع كل هذا التقارب الذي أجده بين طرائق العلماء ، فإنى أشعر شعورا قويا ، وأنا أراجع بعض كلام الباقلاني أنه يضع بلاغة بديلة للبديع ، وأقول بديلة ولا أقول بجانب بلاغة البديع ، لأنه وإن أقر للبديع ببعض الفضل في كشف الأسرار البيانية ، فإنه يرى أن المعوَّل عليه في الفصل في قضية الإعجاز هو هذه البلاغة البديلة التي حاول غرسها في حقل دراسة الإعجاز ، ولكننا لم نلتفت إليها ، ولم نُعطِها حقها ، وكان يمكن أن تكشف غوامض كثيرة ، فالأصل الأول الذي درسته من هذه البلاغة وهو استقلال الجملة مع شدة ارتباطها بما قبلها وما بعدها ، كما بينا يمكن أن يعين على دراسة استقلال بيت الشعر بمعناه ، وصلاحيته لأن يخاطب به وحده ، فيفيد فائدة ظاهرة ، وكأنه جزء مستقل عما قبله ، وما بعده ، فإذا أدخلناه في نسقه في القصيدة وجدنا التلاحم ، والترابط الظاهر ، وهكذا .

ومن أصول البلاغة التي يؤسس الباقلاني عليها إعجاز القرآن ويجعلها بديلا للبديع هو الدقة المتناهية في اختيار مواقع الجمل المفيدة لمعانى العظة والاعتبار ، وتخلل هذه الجمل في الأغراض القرآنية المختلفة ، مثل القصص ، والأحكام ، وأدلة التوحيد ، وأدلة البعث ، والحشر ، وغير ذلك مما جاء في الكتاب العزيز ، وحاول أن تستصحب هذا الأصل ، وأنت تقرأ في المصحف ، وقد سبقت الإشارة إليه في حديثنا عن عبد القاهر ، يقول الباقلاني« لا يمكنك أن تصل بالقصص مواعظ زاجرة ، وأمثالا سائرة ، وحكما جليلة ، وأدلة على التوحيد بينة ، وكلمات في التنزيه ، والتحميد شريفة »[1].

(١) إعجاز القرآن صـ ١٩٤، ١٩٥ .

يعنى أن بث هذه المعاني التي هي المواعظ الزاجرة ، والأمثال السائرة ، والحكم إلى آخره في جسد القصص كغرض من أغراض القرآن لا يدخل في إمكانك ، ثم إنه يشيع في آيات التشريع أكثر من شيوعه في آيات القصص ، وراجع المسألة وأنك لا تستطيع ولا يستطيع الخلق جميعا توزيع غرس هذه المواعظ في القصص على الحد التي هي عليه في المصحف .

ومن أصول هذه البلاغة معرفة وجه الخلوص من شيء إلى شيء من احتجاج إلى وعيد ، ومن إعذار إلى إنذار ، ومن فنون من الأمر شتى مختلفة تأتلف بشريف النظم ، ومتباعدة تقترب بعلي الضم كما يقول الباقلاني .

ومعنى هذا أن تأليف المختلف عند الباقلاني يقع على صورتين صورة في المعاني الجزئية المتباعدة التي يؤلف بينها شريف النظم كما مضى في آية الشورى وكما قال الباقلاني في آية القصص : ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ (القصص:٧٧) قال « هي خمس كلمات متباعدة في المواقع ، نائية المطارح قد جعلها النظم البديع أشد تآلفا من الشيء المؤتلف الأصل ، وأحسن توافقا من المتطابق في أول الوضع » .

وشرف النظم الذي صارت به المعاني المتباعدة المواقع أشد تآلفا هو بناء الكلام فيها على طريقة واحدة ، الأمر بالشيء والنهي عن ضده ، وتكرار هذا الحذو ، وهذا البناء ، وقد منح الكلام تآلفا وتشاكلا ، وإن تباعدت معانيه ، لأن هذه المعاني المتباعدة صُبت في قالب واحد ، وهذا كثير جدا في الكتاب العزيز ، وفى كلام رسول الله ﷺ وكلام أصحابه ، وقد ذكرت له شواهد في

بعض ما كتبت ، وهو من الأصول البلاغية التي تقع في كلام الله وفى كلام الناس ولكنها في كلام الله على وجه يقطع الأطماع ، ومثل هذا الأصل مثل كثير من فنون البلاغة كالتشبيه والاستعارة .

وقد بينت مراده بشريف النظم في آية الشورى وذكرت أنه أتبع لفظ الجلالة بالذي له ما في السموات وما في الأرض ليقارب ذكر رجوع الأمر إليه سبحانه ، وهذا بخلاف فاتحة الكتاب : ﴿ صِرَاطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ ﴾ (الفاتحة:٧) ولم يقل هنا صراط العزيز ولا صراط الذي له ما في السموات وما في الأرض لأنه وقع في خاتمة أم الكتاب التي تتجه إلى الثواب والعقاب ، وهو النهاية المقابل للبداية المبتدئة بالحمد والثناء المفضي إلى الهداية ، والنهاية هي نهاية من خالفوا الهدى فغضب الله عليهم ، وضلوا فهلكوا ، وهكذا تجد الكلام مرة إلى هنا ، ومرة إلى هناك .

والأصل الثاني في تأليف المختلف هو تهيئة الكلام والانتقال فيه من غرض إلى غرض ، الذي يسميه العلماء حسن التخلص ، ويقابله الاقتضاب وقد جاء كل في القرآن ، وفصيح كلام العرب ، وفى المسألة كلام كثير ولكننا هنا نتابع الباقلاني ، وقد اعتنى عناية متكررة بما في القرآن الكريم من وجوه الخلوص« من شيء إلى شيء ، من احتجاج إلى وعيد ، ومن إعذار إلى إنذار ، ومن فنون من الأمر شتى مختلفة تأتلف بشريف النظم ، ومتباعدة تقترب بعلي الضم »[1].

والذي أغراني بالقول بأن الباقلاني يضع لبنات أساسية لدراسة الإعجاز البلاغي ويراها بديلة لبلاغة البديع التي قال بها من سبقوه ومن عاشوا معه

(١) إعجاز القرآن صـ ١٩٧ .

كالرماني هو تعليقه على قوله تعالى في سورة الأنعام : ﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾

(الأنعام:٩٦) .

قال : « انظر إلى هذه الكلمات الأربع التي ألف بينها واحتج بها على ظهور قدرته ، ونفاذ أمره ، أليس كل كلمة منها في نفسها غُرَّة؟ وبمنفردها درة؟وهو مع ذلك يبين أنه يصدر عن علو الأمر ، ونفاذ القهر ، ويتجلى في بهجة القدرة ، ويتحلَّى بخالص العزة ، ويجمع السلاسة إلى الرصانة ، والسلامة إلى المتانة ، والرونق الصافي ، والبهاء الضافي ، ولست أقول إنه شمل الإطباق المليح ، والإيجاز اللطيف ، والتعديل والتمثيل ، والتقريب ، والتشكيل ، ـ وإن كان قد جمع ذلك وأكثر منه ـ لأن العجيب ما بينا من انفراد كل كلمة بنفسها حتى تصلح أن تكون عين رسالة ، أو خطبة ، أو وجه قصيدة ، أو فقرة ، فإذا أُلِّفت ازدادت به حسنا وإحسانا ، وزادتك إذا تأملت معرفة وإيمانا » انتهى كلامه رحمه الله .

راجع الاحتجاج على نفاذ الأمر في الآية ، والصدور عن نفاذ القهر ، والتجلي في بهجة القدرة ، والتحلي بخالصة العزة ، وانفراد كل كلمة حتى تصلح عين رسالة ، فإذا أُلِّفت زادتك إذا تأملت معرفة وإيمانا ، هذه إشارات أخرى في الكلام البليغ غير إشارات الإطباق والإيجاز والتمثيل والتعديل ، الباقلاني هنا يستخرج من الكلام البليغ أصواتا جديدة ، تحدِّث عن تفوقه ليست هي الطباق والتمثيل وإنما هي أصوات صادرة من غور المعنى ، يسَطْعُ بها الدليل على باهر القدرة ، الباقلاني يقول لا تبحث عن الطباق ، والتمثيل الذي يعطيه لك البيان ، بسهولة ، ويبذله لك على سطحه ، ولكن

يجب أن تَتَفَقَّد حتى تجد جوهر الكلام فإن كان كلام الله وجدت عقلك وقلبك يلامسان الحجة على نفاذ الأمر ويداخلان الصدور عن نفاذ القهر .

ومن أجل أن تدرك معنى كلام الباقلاني لابد أن تراجع الآية التي استخرجت من أغوار نفسه هذه الأوصاف ، وأن تعيشها كما عاشها ، وكيف ألمَّت هذه الكلمات في الآية بهذه المعاني الجليلة ، وكيف استقلت كلمة واحدة ببيان فلق الإصباح ، والثانية ببيان جعل الليل سكنا ، والثالثة ببيان جعل الشمس والقمر حسبانا ، وكيف صدر هذا كله عن علو الأمر ونفاذ القهر ، حاول أن تذوق الذي ذاقوه ، فإن لم تصبه قاربته والله سبحانه وتعالى لا يرد يديك ولا يديّ صفرا حتى يضع فيهما خيرا ، الخطر المهلك لي ولك أن ندع العلماء يتأملون نيابة عنا ثم نكرر كلامهم .

وهذه الأصول التي ذكرها الباقلاني بديلا للإطباق المليح والإيجاز اللطيف تجد بينها ترابطا وتكاملا ولها جذر تنبع منه .

أما هذا الجذر فهو التأمل الذي تدخل فيه قلبك كلَّه ، وعقلك كله ، وسمعك وبصرك وفؤادك في الكلمة التي تدرسها ، وتتأملها ، بخفض جناح وسكون طائر ، وهذا هو الأصل لأنه هو الذي يجعلك تلامس ما في الكلمة من الأمر الإلهي ، وليس الأمر الإلهي مقصورا على الآيات الدالة على بسط القدرة ، كقوله سبحانه « فالق الإصباح ، وجعل الليل سكنا » ونظائره مما ذكرنا وما لم نذكر وإنما أيضا الأمر الإلهي قائم في كلام الله كله ، بما في ذلك ما أجراه الله على ألسنة خلقه كالذي كتب به سليمان عليه السلام للمرأة التي كانت تملك اليمن وأوتيت من كل شيء ، قال سليمان : ﴿ **إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ** ﴾ (النمل: ٣٠-٣١)

ويعقب الباقلاني بقوله« متى تهيأ للآدمي أن يقول في وصف كتاب سليمان عليه السلام بعد ذكر العنوان والتسمية هذه الكلمة الشريفة : ﴿ **أَلَّا تَعْلُواْ عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ** ﴾ .

وقوله : « متى تهيأ للآدمي » معناه أنه ليس مما يدخل في طوقه ، وليس مما تهيأ الآدمي له ، يعني لم يدخل الله في خلقه ولا في قدرة هذا الآدمي أن يقول مثله ، لأنه من الأمر الإلهي وكل ما هو من الأمر الإلهي لا يتهيأ للآدمى .

وبعد هذا الجذر الذي هو أصل هذا العلم عند الباقلاني وغيره ، نجد الأصول التي اقتبسناها من كلام الباقلاني تتكامل ، وتمثل خطوطا أساسية ، لعلم الإعجاز فالاستقلال المبهر لمعنى الجملة القرآنية ، يفضي إلى أنها حين توضع في سياقها إما أن تكون متآلفة مع أخواتها أو متباعدة ، فإذا كانت متباعدة ، تدخل الأصل الثاني وهو تأليف المختلف ، ثم إن هذه الجمل وما حولها من مؤتلف ومختلف يتم بها فصل من فصول الكلام ، ثم ينتقل الكلام إلى فصل آخر فيأتي الأصل الثالث ، وهو معرفة وجه الخلوص من شيء إلى شيء ، وهكذا تجد أفكار الباقلاني تتكامل ، وتُتداخل عمق البيان وتُتابع امتداده على وفق نموه وتتابعه .

ولا أريد أن أدع الباقلاني الخصب الثري قبل أن أشير إلى أمرين مع أن الذي تركته من كلامه أفضل بكثير من الذي ذكرته،وإنما يبلغ الإنسان طاقته.

الأمر الأول هو أن الباقلاني يرى أن أهم ما يهديك إلى الأمر الإلهي في كتاب الله والبلاغة العالية فيه أن تقف عند أي آية من الآيات وأن تحسن فهمها ، وأن تراجع كلام العلماء فيها ، فإذا أصبح معناها واضحا عندك ،

فحاول أنت أن تعبر عن معناها الذي حصّلته ، وأصبح قريبا من لسانك ، ثم راجع ما كتبته ، وتفقده ، وضعه بإزاء الآية وقارن ، وسترى عجزا وتخبطا ، وقصورا ، وفسادا ، وكلاما ثقيلا ، ونظما وخما إلى آخر ما قال الباقلاني ، ويرى الباقلاني أن تكرار القصص ، وغير القصص لبيان عجزك أيها الإنسان عن أن تأتي بشيءٍ من مثله ، وأن الذي أنزله على عبده سبحانه هو وحده الذي يأتي بما يشاء من مثله ، يقول الباقلاني :

« كل سورة من هذه السور تتضمن من القصص ما لو تكلفت العبارة عنه بأضعاف كلماتها لم تستوف ما استوفته ، ثم تجد فيما تنظم من ثقل النظم ، ونفور الطبع ، وشراد الكلام ، وتهافت القول ، وتمنع جانبه ، وقصورك من الإيضاح عن واجبه ، ثم لا تقدر في أن تنتقل من قصة إلى قصة ، وفصل إلى فصل ، حتى تتبين عليك مواضع الوصل ، وتستصعب عليك أماكن الفصل ، ثم لا يمكنك أن تصل بالقصص مواعظ زاجرة ، وأمثالا سائرة . . » إلى آخره .

وهذا نص جيد يدلك على مواطن الزلل في بيانك ، وأنه مواطن انتقال الكلام من معنى إلى معنى ، وأصعب منه هو القدرة على أن يكون كلامك ممتلئا بالمعاني ، زاخرا بالصور ، والخواطر ، إلى آخره ، ثم إن هذه المحاولات التي هي العبارة عن معاني الآخرين ، كانت عناية العلماء في زمن العناية بتكوين الملكة اللسانية ، وتهذيبها ، وصقلها ، وكتبوا كتبا في حل المنظوم ، يعني العبارة بالعبارة الجيدة المتقنة والمصقولة عن معنى بيت شعر ، وكان الجاحظ بارعا في ذلك ، وكان يكون نثره لبعض الشعر أجود من الشعر نفسه ، ولهذا أكبر الأثر في شحذ الملكة البيانية ، وصقلها ،

وقدرتها على أن تستكشف الحيل الأسلوبية التي بها تطوى المعاني والخواطر في طيات الجمل ، وفى ظاهر الكلمات ، وباطنها ، ثم إن هذه المحاولات مؤسسة على الجذر الأصلي في منهج الباقلاني ، وهو التأمل النافذ والصافي المدقق للإحاطه بالمعنى ، والتدسس في ضمير الكلمات ، حتى تلامس أخفى ما فيها من خواطر وسوانح ، وللباقلانى كلمات غريبة ، ونادرة في بيان ما يجب أن يكون عليه الدارس وهو يمارس هذه الخطوة الأساسية في منهجه ، وهو التأمل ، وقد ذكرت منها كلمته النفيسة التي أحرص على إشاعتها بين طلاب العلم ، وهي قوله : « وجه الوقوف على شرف الكلام أن تتأمل » وقوله : « انظر إليه بسكون طائر وخفض جناح ، وجمع عقل » ومنها مما لم أذكره قوله : « ارفع طرف قلبك ، وانظر بعين عقلك ، وراجع جليّة بصيرتك » وقوله : « حتى يسرى المعنى في حسِّك ، وينفذ في عروقك » وما يشبه ذلك مما يراه هو وغيره أصلا لا يجوز إغفاله في دراسة بلاغة الكلام ، ثم هو دال على التجربة الحية التي كان يمارسها الباقلاني ويعرض لنا صورة من صور قراءته للكلام العالي ، ولذلك كررت خطر الاكتفاء بما وصفوا به تجاربهم ، وعدم خوض التجربة التي خاضوها ، لأن هذا يجعل كلامنا الذي نَصِفُ به بلاغة الكلام كلاما مَيِّتاً لأن ثمة فرقا أساسيا وعميقا لا تخطئه أذن السامع والقارئ بين أن أقول إن الآية صادرة عن الربوبية ومتحلّية بخالص العزة ، وأنا في هذا أكرر كلام العلماء ، وأن أقوله وأنا أجد هذه المعاني في نفسي من معاناة تأملي ومراجعتي ، حتى يسري المعنى في حسي وينفذ في عروقي كما يقول الباقلاني وهو كلام يؤكل بالفؤاد ويشرب .

الأمر الثاني الذي أحب أن أوكد عليه في كلام الباقلاني وأختم به حديثى عنه هو : أن الباقلاني في كل مسألة ذكرها أو كل أصل أشار إليه ، كان يقول إنه يفتح طريقها ، ويدل عليها ، وعليك أنت أيها القارئ أن تسلك سبيلك الذي دَلّك عليه ، وأن تدخل الباب الذي فتحه ، ولا يجوز لك أن تعتبر أن ما عقب به على تحليل الآيات ، وما حدثك به في مذاهب الشعراء ، وتقاربها وتباعدها ، وما وصفه من مكونات الشعر والبيان ، هو العلم الذي يغنيك ، ويكفيك ، إنما العلم الذي يغنيك ويكفيك هو ما تستخرجه أنت بعد ما طرّق لك الباقلاني الطريق ، وبيّن السبيل ، وشرح المنهاج ، وأقام على الطريق المنار وهذا جيد جدا ، ومذهب رفيع ، وناجح ، في بناء العقول والعلوم معًا لأنك لن تكون متلقيا لعلم الباقلاني ، وإنما تكون مُدَرَّبا على إخراج علم كعلم الباقلاني ، واستنباط علم كعلم الباقلاني ، فلابد أن يتحول عقلك من عقل متعلم يأخذ عن الشيخ الجليل إلى عقل شيخ يستخرج مثل ما يستخرج الشيخ ، ولا يجوز أن تقف المعرفة في الباب الذي حدّثك فيه عند المعلومات التي وضعها ، وإنما لابد أن تزيد أنت هذه المعلومات ، وأن تضع يمينك لبنة في هذا البناء ، وهذا شيء يروقنى جدا وأحب أن أتعلّمه وأن أعلّمه ، ولم تكن هذه طريقة الباقلاني وحده ، وإنما هي طريقة علمائنا الذين كان تلاميذهم يعقلون عنهم مذهبهم فيتمون علمهم من بعدهم .

وبقي أن أضع بين يديك نصوص الباقلاني التي كانت كثيرة المواقع في كتابه والتى كان يشد بها على يد القارئ ويقول له إن كنت فهمت عني فأكمل ما لم أكمله .

من ذلك قوله رحمه الله : « ولعلك تستدل بما قلنا على ما بعده ، وتستضىء بنوره ، وتهتدي بهداه » .

يعني الشيء الـذي قلتـه لك ليس هو العلم ، وإنما هو دليل يدلك علـى ما بعد الذي قلت ، وإضاءة فقط تهتدي بها لتقع في ضوئها على العلم ، وهذا كلام نفيس جدا ويرفض رفضا قاطعا أن ينتهي العالم عند تحصـيل مـا قالـه العلماء .

ويقول « فاحفظ عنا في الجملة ما كررنا ، والسير بعد ذلـك في التفصـيل عليك ، وحصِّل ما أعطيناك من العلامة ثم النظر عليك » .

وهذا نص كريم جدا ، ومعناه أنه وضع في يـدك علامـة تسـتطيع بهـا أن تنظر ، وتستخرج ، واحذر أن تظن أن العلامـة علـم يغنيـك عـن النظـر لأن العلم ليس فيها وإنما في النظر الذي هو عليك أنت أيها القارئ ولـيس علـى الباقلاني ، لأن الباقلاني صانع علامات يضعها على طريق النظـر والمراجعـة والاستخراج لا غير ، وهذا من أكرم ما يقوله الكاتب لمـن بعـده ، رحـم الله الباقلاني الذي لم يشأ أن يكون علمه فينا متنا يحفـظ وكفـى ، وإنمـا أراد أن يكون علمه فينا غرسا نتعهده نحن حتى يثمر ثمرا جديدا يضاف إلى ثمره .

وهذا هو الطريق الذي يربو به علم السلف بجهود الخلف وتربو به عقول الخلف بعقول السلف .

وقد قدّمت لك يالسان الأمة ما أستطيع وهو قليل بالنسبة لحقـك علينـا ، وقد وضعت في عنقنا مسئولية كبيرة وهي أن نقدم لمن بعدنا مثل ما قـدّمت لنا ، وأن نفتح لهم من آفاق العلم ما فتحت لنا .

اللهم ارحمه وارحمنا وألحقنا به وبطبقته من علمائنا العاملين كرامة نفس وقرة عين .

* * *